التشريع والنحو في القرآن الكريم

أ.د. صالح بلعيد

المقدمة: إنّ السبب الرئيس الذي دفعني لكتابة هذه المقالة ما أثير في ملتقى جامعة ابن خلدون بتيارت حول: **النّحو العربي: الواقع والآفاق**، يومي: 16 –17 ماي 2005. من استنكار عند قولي: إنّ **القرآن كتاب تشريع وليس كتاب نحو**[1]، فلا يمكننا اعتماد القرآن مدونّة لغوية في حال تيسير النّحو؛ أي اعتماد **النّحو القرآني**. وقلت: إنّ **القرآن لم يأت بكلّ القواعد التي نعتمدها، فهو ليس ديوان العرب وأضيق منه، ولكنّه جزء هام من مدوّنة العرب**. وعقب المحاضرة ثار المتحمّسون للدين، بأنّ هذا ليس من العلم، وهذا تقزيم للقرآن الكريم وهذا جحد وأيّ جحد...

ومن خلال هذه المقالة لا أبتغي الردّ على ما قيل، بل أستهدف إماطة اللثام عن أمور مستغلقة على من يأخذون أمثال هذه الأقوال: كلام الملائكة العربية/ لغة الحساب والعقاب العربية/ لغة أهل الجنة العربية/العربية توقيف وإلهام/لغة القرآن أسبق من لغة العرب...دون تمحيص وتحليل، ويخلطون بين الإيمان – خصوصية فردية – وله مقاماته، وبين البحـــــث العلمي الذي يحتاج إلى خطاب إقناع وأداة ملموسة موجّهة إلى مؤمن وإلى كافر، وإلى جاحد، وإلى غير مستوعب. أضف إلى ذلك غياب فكرة علمية عربية مفادها: رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأيك خطأ يحتمل الصواب، شرط أن تكون الحجّة قائمة، والبرهان على من ادّعى فما كان يجب تصنيف كلّ رأي مخالف بالجحود.

[1] . وعنوانها: تيسير النّحو عند المجمعيين.

المنارة للاستشارات

ومن خلال ما أثير من تساؤلات وخلافات حول مقالتي، أحاول تشريح العنوان بما أوتيت من أفكار غير عاطفية، وغايتي قيد النقل بالعقل. وليس الإفتاء في الملابسات الدينية وأنا بعيد عنها، بل الهدف هو الإجابة عن: **هل القرآن كتاب تعليمي شرعي، أو كتاب تعليمي نحوي؟ وهل يمكن أن نستشفّ منه الأحكام النّحوية واللغوية ونقرّ بنحو القرآن، أم لا؟**

لقد قيل كلام كثير في هذه المسألة ولا أبتغي اجترار المقول، فأؤثر التمحيص، وآخذ بأشهر الأقوال الموافقة للعقل، ووجه الحكمة هنا الجمع بين رأي الجمهور وما يقبله المنطق، وفق معطيات علمية راهنة. وبناءً على ذلك سوف أستعرض سلسلة الجوانب المرتبطة بالموضوع، وأخلص إلى نتائج من وراء سرد حيثيات كلّ مبحث، وسيكون التفصيل في الموضوع كما يلي:

- **ما هو القرآن؟** تنصّ المصادر بأنّ القرآن هو كلام الله المقدّس، يحمله كتابه الأخير المنزّل على النبيّ محمد صلى الله عليه وسلم ناقله وشارحه للمؤمنين والمسلمين. المتعبّد بتلاوته، جاء في الطبقة العليا من الفصاحة لا هو شعر ولا هو نثر، جامع لخلاصة تعاليمه، نزل مستنكراً لكلّ ما من شأنه أن يفرّق بين إنسان وإنسان. فيه أحكام الزواج والطلاق والميراث والبيوع والحلال والحرام والجهاد في سبيل الله، والأخذ بالخلق الإسلامي، كما نجد فيه أحكاما عن الجنايات والعقوبات والكبائر والصغائر والتزام الطاعة. فالمضمون العام لمحتواه: الهداية/ التشريع/ الأوامر/ الوحدانية/ القدرة/ الحكمة/ الأخـــــــــــلاق/ الإشارات العلمية/ الغيبيات/ النهي... كما نقرأ قصصاً وسيَراً وأحكاماً وتشريفات؛ ترسم صيغ العلاقات الاجتماعية والقضايا العسكرية، وتحدّد الحقوق، وتنهى عن التصرّفات السيئة والأخلاق المذمومة...(القرآن الكريم كتاب **شريعة** وقانون، حلال وحرام، ومباحث وممنوعات، ونظام حياة وآداب، سلوك

المنارة للاستشارات

ومنهج حُكم، وقد ذكر فيه عبادات يتعبّد بها الله، كما ذكرت فيه سِيَر أنبياء ورسل بعثوا إلى أممهم في الدهر القديم[1]) وفي هذا الخضم يمكن الرجوع إلى أسباب النزول لنرى الآيات أو السوَر تَدلّنا على نفس السبيل، بأنّها لا تخرج عمّا أشرت إليه:

- ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ ﴾ النساء 105.
- ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾ إبراهيم1.
- ﴿ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ التكوير 27.

كما أن الرسول صلى الله عليه وسلم أقرّ في كثير من أحاديثه بأنّ القرآن كتاب هداية وخبر الأولين وقصصهم " إنّ فيه خبر الأولين والآخرين". وفي حديث آخر يقول: "كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبّار قصمه الله، ومن يبتغي الهدى في غيره أضلّه الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلبس به الألسنة، ولا تشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الردّ، ولا تنقضي عجائبه. هو الذي لم تنتهِ الجنّ إذا سمعته حتى قالوا ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ ﴾ ومن قال به صدق، ومن عمل به أُجر، ومـــــــن حكم به عَدل، ومن دعا إليه هُدي إلى صراط مستقيم" رواه الدارمي. فنجد في هذا الحديث الإيضاح المبين لفحوى القرآن بأنّه كتاب هداية، وإنّ ذكره لكلمات (ولا تلبس به الألسنة) هي بمعنى الوضوح والبيان

[1] . الشيخ جلال الحنفي البغدادي، شخصية الرسول الأعظم قرآنيا، ط. 1. بغداد: 1997، وزارة الثقافة والإعلام، ص. 74.

المنارة للاستشارات

وعدم الاختلاط. ويمكن الاستشهاد بقول السيوطي في هذا المجال وإن كان يتعرّض إلى كثير من القضايا (وإنّ كتابنا القرآن لهو مفجّر العلوم ومنبعها، شمسها ومطلعها، أودع فيه سبحانه وتعالى علم كلّ شيء وأبان، فيه هدي وغي، فترى كل ذي فنّ منه يستمد، وعليه يعتمد، فالفقيه يستنبط منه الأحكام ويستخرج حكم الحلال والحرام ، والنّحوي يبني منه قواعد إعرابه ويرجع إليه في معرفة خطإ القول من صوابه، والبياني يهتدي به إلى حسن النظام، ويعتبر مسالك البلاغة في صوغ الكلام، وفيه من القصص والأخبار ما يذكّر أولي الأبصار، ومن المواعظ والأمثال ما يزدجر به أولو الفكر والاعتبار إلى غير ذلك من علوم لا يقدّر قدرها[1]) ونرى السيوطي يعتبر القرآن مفجّر العلوم، فحقيقة إنّ سبب قيام مختلف الدراسات كانت دينية ، وأما ذكره بأنّ النّحوي والبياني يستهديان به فلا شكّ أنّه يقصد الاحتجاج بالقرآن بغية التوثيق وإزالة الشك، وأنّه القول الصحيح. ولا يقصد بأنّ النّحوي أخذ قواعد اللغة من كتاب الله. ومن هنا فإنّنا لم نجد سبباً واحداً يشير إلى ظاهرة لغوية معيّنة كانت عند العرب وعلى ضوئها أنزل الله عز وجل آياته أو آية واحدة بغية التحسين اللغوي، أو اللحن، أو تقويم اعوجاج، أو قل ولا تقل... ولو كانت دعوته لغوية لما أقر بتعدّد اللغات ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴾ الروم:22 . وإذا أخذنا بعض الآيات للتدليل على هذا الجانب نجد أسباب النزول واضحة؛ بأنّها تعني جانب الهداية والأحكام والشرائع والأخبار وقصص الأولين، فلا جدال إذاً بأنّ **القرآن كتاب هداية.**

ولا يمنع هذا من التعرّض إلى قضايا ذات العلاقة بالموضوع لإزالة كلّ غموض، وقد أصبغت بعضها اللّبس على الدراسات الفقهية واللغوية، ممّا جعل

[1] . الإتقان في علوم القرآن، المقدمة.

المنارة للاستشارات

البعض يقول: إنّه كتاب تشريع حقاً، لكنه كتاب فصيح، جاءنا من لدن حكيم، لا يرقى الشكّ إلى لغته، ولا يمكن للغته أن يلحقها الخطأ، فهي منزّهة عنه، جاء القرآن يعلّمنا لغتنا ومنهاج تناولها وفق آليات متطوّرة راقية، **ولذا فهي نموذج لغوي يمكن احتذاؤه والبناء عليه**. ومن هذه الزاوية كان عليّ التعرّض إلى أمثال هذه القضايا وما يتعلق بالجانب النّحوي أو اللغوي ذات الصلة بالقرآن للإجابة عن العنوان، وأحاول تحليلها في النقاط التالية:

•**أسبقية العربية عن القرآن:** إنّ أول لغة عربية وصلتنا وعلى ضوئها وقع الاحتجاج في المقام الأول هي لغة / عربية العصر الجاهلي، وعندما نقول **(لغة / عربية العصر الجاهلي)** نعني تلك اللغة التي مرّت على مراحل تصفية حتى أصبحت لغة العرب جميعهم، حيث يرى بعض الباحثين أنّ كلّ شاعر جاهلي كان يقرض شعره بلغة قومه، ثمّ حصل امتزاج كبير بين لغات القبائل العربية في المناسبات الدينية وفي الأسواق الشعرية وكانت الغلبة **للغة المشتركة** (اللسان) الذي عدّ اللغة العامة الفصيحة بالاستعمال المتواتر والتي يفهمها العرب جميعهم، وهي عربية الفصحاء التي تُرقي من شأن الناظم بها، فاعتمدها بعض الشعراء، وفيها أُسقطت كثيراً من الخصائص اللغوية للقبائل العربية، حيث ظهرت لغة مفهومة على العموم في أساليبها في صورة امتزاج لغوي مشترك (فصيح) وبهذا الامتزاج أنشد الشعراء قصائدهم في وصف أطلالهم والحديث عن أيامهم ومفاخرهم وأنسابهم ومعاركهم، فهي ذات جزالة في اللفظ، وفخامة في المعنى، وقدرة في التصوير، وروعة في التعبير، حاملة معاني التجديد على مرّ العصور(وأما اللغة العربية في تلك المرحلة قد بلغت قدراً عالياً من النضج والكمال في الأداء والأساليب والجمال الفنّي في النصوص الأدبية من شعر ونثر، ممّـــا جعل النقاد المنصفين يكرّرون إعجابهم بشعرنا الجاهلي ولغته، على اختلاف مذاهبهم وانتمائهم وعصورهم، ولسنا في حاجة إلى فضل قول بعد

المنارة للاستشارات

هذا للتدليل على نضج تلك اللغة، وتماسك بنائها وغناها في تلك المرحلة المبكرة[1]) وهذه اللغة تجسّدت في لغة المعلّقات التي أبدع فيها الشعراء الجاهليون قصائدهم، وهم من مختلف القبائل العربية **عدا قريش** أمثال شعراء تميم وقيس وهذيل وكنانة... فنظّموا بها قصائد كثيرة، وأُجيزت التي جاءت وفق **كلام سابق متداول** عند العرب (الكلام الفصيح) فأصبح الشاعر الناطق المثالي لمنطقته، إلى جانب بعض النثر الذي تمثّل في خطبهم الجزلة والفخمة والحاملة لإبداع راقٍ متميّز. وعلى ضوء تلك اللغة المشتركة نزل القرآن، وعلى كلام كان (سابق /مصطلح عليه) فهي عربية الفُصَحاء التي استحسنها العرب، والمستخلصة من واقع كلام العرب المتواتر، فالقرآن لم يأتِ بلغة جديدة، ولو كان ذلك كذلك لما فهمه العرب، اللهمّ بعض الأساليب التي لم تألفها بعض القبائل. وكذلك الشأن بالنسبة للخطّ الذي اتّخذته العربية، فهو اصطلاح كان سابقاً قبل نزول القرآن، وكانت تدوّن به بعض الوريقات، إلاّ أنّه لم يتطوّر بالشكل الذي نعرفه الآن، فهو لم يعرف الإعجام والشكل إلاّ في الصدر الأول من العصر الإسلامي. وهنا نرى القدسية ترتبط في المقام الأول بكلام الله كخطاب شفوي (قرآن) الذي لا يمسّه إلا المطهّرون، وليس للشكل أو لما يخطّ عليه والمكتوب في المصاحف.

- **الإعجاز والتحدّي:** يقول البعض إذا كان القرآن الكري نزل بكلام العرب، وفق ما كانوا يتداولونه، فأين وجه الإعجاز، ولماذا تحدّاهم؟ أقول: إنّه لم يتح لأمة من الأمم كتاب مثله من حيث البلاغة والتأثير في النفوس والقلوب، فهو معجزة بيانية، ويكمن إعجازه في نظمه حتى خرج عن طوق البشر، وأعجزهم عن مجاراته أسلوباً وصيغاً، فهو كما يقول ابن قتيبة (لا تنقضي عجائبه، ومفيداً لا تنقطع فوائده، جمع الكثير من معانيه في القليل من لفظه[2]) وهذا ما نجده في

[1] . مسعود بوبو، في فقه اللغة العربية، ط.2. دمشق: مطبوعات جامعة دمشق، 2001 -20002، ص. 14 -15.
[2] . أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، تأويل مشكل القرآن، شرح ونشر: أحمد صقر. القاهرة: د ت، المكتبة العلمية، ص.3 .

المنارة للاستشارات

بعض القراءات، حيث نجد صيغاً نادرة، وأفعالاً عبّر بها عن أزمنة ليست في صيغها المحدّدة، ونماذج عالية من النظم والتأليف، وأشكالاً من الصيغ الرائعة، وخروجاً عن أعراف كان العرب قد ألفوها، وجاءتهم جديدة، وسميّتها(العدول اللغوي) ومن هنا فإنّ سرّ خلوده كونه إعجازاً لغوياً فريداً في **نظمه** لا في **مفرداته** وكذلك بقاؤه ثابتاً في ألفاظه، متغيّراً في دلالاته، فهو من جنس ما برعوا فيه، وهو البيان، ومع ذلك فقد تحدّاهم باستحالة الإتيان على منوال ما أتى به. ومن هنا ذهب الباحثون مذاهب شتى في اكتشاف وجود إعجازه؛ فهناك من رآها في ما تتضمّنه الآيات من جوانب علمية ورياضية وعقلية، ووجود الآيات المتشابهات، وهناك من قال: إنّ إعجازه في تشريعه الأمثل، وفي المبادئ التي حملها، وهناك من رأى بأنّ إعجازه في لغته وأسلوبه الفريد، ونظمه الأنيق وفي فصاحته التي خرّ دونها الفصحاء... وهكذا فميادين الإعجاز في القرآن مترامية الأبعاد، لا يحدّها زمان ولا مكان ولا تنفد مادتها، فليس للباحثين في الإعجاز القرآني ما هو أكشف لهم عن المظاهر التي تتعلّق باستعماله الحروف العربية من الرجوع إلى خصائصها ومعانيها الفطرية.

وأما تحدّي القرآن العرب بمعارضته فكان السبب في الكشف عن وجوه البلاغة القرآنية؛ فتحدّثوا عن مجاز القرآن ونظمه، بالوقوف عند كلّ آية، فدرسوها دراسة معنوية ولغوية، ووقفوا وقوفاً متأنّياً عند فنون البلاغة وما في عناصر الجمال الغني في القرآن، ومن خلال ذلك وجدوا آيات المواجهة تدخل في باب التقارع اللغوي الذي استحدثه الإله، ولم يكن التحـــدّي خروجاً عن عرف لسان العرب وعن منطق اللغة، وعن فكر الأمة التي تحت تحتكم إلى اللغة في الكلام وبالكلام، وعلى ذلك خاطبهم متحدّيا:

المنارة للاستشارات

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ البقرة: 23.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ يونس: 38.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ هود: 13

﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ الإسراء: 88.

﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ الطور: 34.

وأمام هذا التحدّي هناك من رأى بأنّ العرب منعوا الطعام، لكنّهم أُعطوا الكلام، فالعربي إذا قويت فصاحته في إمكانه أن يأتي بأساليب تضاهي أساليب القرآن الكريم، إلاّ أنّه صرفه الله عن ذلك، وهذا ما قال به إبراهيم النظّام (الآية والأعجوبة في القرآن ما فيه من الأخبار عن الغيوب، فأما التأليف والنظم فقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد لولا أن الله منعهم بمنع وعجز أحدثهما فيهم[1]). كما يرى الجرجاني بأنّ القرآن اهتمّ بالمعنى لا باللفظ، فالألفاظ خدم للمعنى وتابعة لها، والعلم بمواقع المعاني في النفس علم بموقع الألفاظ الدالة عليها في النطق، ولذلك توسّع في الاستشهاد بالشعر عند حديثه عن النظم على حساب الآيات، فكان عدد الشواهد الشعرية التي أوردها في (دلائل الإعجاز في علم المعاني) (اثنين وسبعين وأربعمائة تتفاوت فيما بينها عدد أبيات؛ فمنها ما لا

[1] . أحمد مطلوب، بحوث بلاغية. بغداد: 1996، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، ص.8.

المنارة للاستشارات

يتجاوز البيت بـل الشطر أحياناً، ومنها ما بلغ أربعة أبيات[1]) وقد توزّعت هذه الشواهد على ما يقرب من مئة وستين شاعراً من عصور مختلفة، بدءاً من العصر الجاهلي، ولم يتوقّف استشهاده عند الطبقة الثالثة، بل كان يأخذ عن مشاهير الشعراء، فاستشهد بالمتنبي والبحتري وأبي تمام وانتهاء بعصره وهذا تماشياً مع كتب الإعجاز التي تحدثت عن النقد والبلاغة والنّحو، وأسرفت كثيراً لمعرفة الإعجاز القرآني الذي يراه كامناً في نظمه باستعماله أسلوباً عجيباً يستحسنه العقل، فالحسن ما حسّنه العقل والقبيح ما قبّحه العقل ويربط هذا بالتزام الكشف عن أسرار النظم الذي يحصل عن طريق احتذاء قواعد النّحو(وليس النظم إلاّ أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النّحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخلّ بشيء منها[2]) وكان يرى **ضرورة معرفة الشاهد الشعري شرطاً لازماً لمعرفة الإعجاز القرآني** الذي جاء على حدّ من الفصاحة تقصر دونه بلاغة البشر(وكان محالاً أن يعرف كونه كذلك إلاّ من عرف الشعر الذي هو ديوان العرب وعنوان الأدب[3]) وهذا ما يراه كذلك ابن سنان الخفاجي من أنّ العرب والفصحاء والبلغاء صرفهم عن الإتيان بوجه من أوجه الإعجاز القرآني. ومن هنا فإن الإعجاز والتحدّي ليس في الألفاظ المتداولة، والتي يعرفها العام والخاص، بل في النظم الذي جاء وفق خصائص راقية، وهذا النظم (الخاص) يرتبط بالنّحو الذي يتجاوز البحث في أواخر الكلم وعلامات الإعراب وفضيلته تعود إلى معناه لا إلى لفظه، حيث إنّ نظم الكلام لا يتمّ كيفما جاء، بل باقتفاء آثار المعاني فيترتّب ذلك حسب ترتيبها في النفـــــــــس.

---

[1] . محمد طاهر الحمص "الشاهد الشعري في كتاب دلائل الإعجاز" مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق. سورية:1998، الجزء الأول، المجلد الثالث والسبعون، ص.29.

[2] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز ، ص81.

[3] . عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تح: محمود محمد شاكر. القاهرة: مكتبة الخانجي، ص.8.

المنارة للاستشارات

قدسية القرآن في معانيه لا في ألفاظه: إنّ القرآن الكريم محدّد في سوره وآياته وكلماته وحروفه، فيقول بدر الدين أبو عبد الله محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي[1]، نقلا عن الأئمة الثقاة بأنّ عدد سور القرآن مائة وأربع عشرة سورة (114) فالمكية 86، والمدنية28، وعدد آياته ستّة آلاف ومائتان وثمان عشرة (6218) وعدد كلماته سبع وسبعون ألف كلمة وأربعمائة وتسع وثلاثون كلمة(77439) وعدد حروفه ثلاثمائة ألف وثلاثة وعشرون ألف وخمسة عشر(323015) كما أنّ أحزابه ستون، وعدد أثمانه 240 وعدد أرباعه 120 والذي يهمنّا من وراء هذا العدد المحصور الذي اختُلف فيه قليلاً[2]، هذا التضييق العددي الذي يمكن أن نجده في معجم واحد. ومن هنا فإن اللغة العربية أوسع من القرآن في عدد ألفاظها، فهي ديوان العرب منذ سبعة عشر قرنا، ومادتها جبال لا يمكن إحصاؤها، وتراثها أغنى تراث عرفته الإنسانية، وفيه فائتات كثيرات في عصر التدوين فما بالك بما جاء بعده. ونقول أبو عمرو بن العلاء: ما انتهى إليكم ممّا قالت العرب إلاّ أقلّه ولو جاءكم جميع ما قالوه لجاءنا شعر كثير وكلام كثير[3]. كما نصّ الشافعي على سعة العربية قائلاً: (ولسان العرب أوسع الألسنة مذهباً، وأكثرها ألفاظاً و لا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي[4]). أي ليس في القرآن اتّساع العربية، فما لا يوجد في القرآن على سبيل المثال(أسلوب المنادى الشبيه بالمضاف وأسلوب الاستثناء بغيـــــــــــر إلاّ وغير، وأسلوب التنازع الذي أعمل فيه العامل الأول، وأسلوب الاشتغال الذي يقع

---

[1] . الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. 1. بيروت : 425 هـ/2004م، منشورات المكتبة العصرية، ج.1، ص.177، وما بعدها.

[2] . يقول الزركشي في سبب الاختلاف: (واعلم أنّ سبب اختلاف العلماء في عدد الآي والكلم والحروف أنّ النبي صلى الله عليه وسلم كان يقف على رؤوس الآي للتوقيف، فإذا علم محلّها وصل للتمام فيحسب السامع أنّها ليست فاصلة. وأيضا البسملة نزلت مع السورة في بعض الأحرف السبعة فمن قرأ بحرف نزلت فيه عدّها ومن قرأ بغير ذلك لم يعدها، وسبب الاختلاف في الكلمة أنّ الكلمة لها حقيقة ومجاز واعتبار كلّ منها جائز وكلّ من العلماء اعتبر أحد الجوائز) الزركشي، ص.179.

[3] . ابن جني، الخصائص، تح: محمد علي النجار. القاهرة: 1952، الجزء الأول، ص.386.

[4] . الرسالة. القاهرة: طبع مصطفى البابي الحلبي، ص. 41.

المنارة للاستشارات

فيه المشغول عنه بعد أداة مختصّة بالدخول على الفعل، وأسلوب التنازع الذي أعمل فيه العامل الأول، وأسلوب الاشتغال الذي يقع فيه المشغول عنه بعد أداة مختصّة بالدخول على الفعل، وأسلوب حذف خبر المبتدإ حين تغني عنه حال لا تصلح أن تكون خبراً له[1]). كما لا توجد المشتقات جميعها، مثل اسم المفعول لكلمة (خلق) على سبيل المثال وهي ذائعة في ديوان العرب، والتصغيرات الكثيرة الموجودة في لغة العرب ولا أثر لها في القرآن. وإنّنا هنا لسنا في موضع المفاضلة، بل نرمي من وراء هذا الوصول إلى أنّ العربية في ألفاظها أوسع وقابلة للزيادة والقرآن لا نجد في ألفاظه الزيادة اللفظية لأنّه مدوّنة مغلوقة.

* **فضل القرآن على اللغة العربية:** إذا كان القرآن نزل بلغة سابقة، وهذه اللغة السابقة لها أسلوب راق فماذا زاد لها؟ لا يمكننا نكران بأنّ للقرآن ميّزات في المقاطع والفقرات وفي القصص وفي كلّ آية شيء لا يوجد له مثيل أسلوبي في لسان العرب، وذلك ما سحّر به غير العرب وما أقر به أولو البلاغة والفصاحة واعترف الجاحظ وبعده عبد القاهر، كما استدلّ عليه المعاصرون من أمثال الرافعي وسيد قطب ومصطفى صادق الرافعي، وخلصوا إلى أنّ القرآن له نمط مجانس لنمط العرب، إلاّ أنّ له قوة في الإبداع، ولم يعرف هذا النمط إلاّ في القرآن الكريم، فأمدّها بزاد من المعاني وحوّلها إلى جبل لا يهتزّ. كما لا يمكن تغطية حقيقة أساسية وهي تطعيم القرآن للعربية بأساليب لم تألفها قبل، فأمدّها بغنى أسلوبي كبير، وزاد في قيمتها المعنوية والبيانية التي كانت تحتكم إليها قبل نزول القرآن، باعتبار مكةّ التي يُتداول فيها **اللسان المشترك** أكثر من غيرها من مناطق الجزيرة العربية لثلاثة عوامل: I- المكان المقدّس، II- القطب التجاري العالمي، III- الأسواق الشعرية. والقرآن بعد نزوله **بلسان العرب** أثراها أيّما إثراء، فكان مفجّر أبحاثها، وصاحب الفضل في نشأة

[1] . على النجدي ناصف "بين القرآن والنّحو" مجلة مجمع اللغة العربية. القاهرة: 1982، الجزء 49، ص.118.

المنارة للاستشارات

الدراســــــــــــــــــــــــــات اللغوية التي أقامت حوله سياجاً منيعاً خوف أن يصيبه تحريف لتعدّد ألسنة الداخلين في الإسلام. ومن هنا فإنّ نزول القرآن **بلسان العرب** كان الشحنة التي جعلت الاهتمامات تنصبّ على البحث في خصوصيات هذه اللغة التي اختارها الله دون غيرها لاحتواء كلمه.

* **إحاطة القرآن بواقٍ منيع:** انصبّت جلّ الأبحاث حول القرآن الكريم، فلقد كان التفسير بالرأي سبباً في إحياء المفردات اللغوية والشواهد الشعرية؛ لأنّه يعتمد على مفهوم اللفظ حسب أصل وضعه اللغوي، كما نظرت كُتب **غريب القرآن**/ كتب **مجاز القرآن** للردّ على بعض الآيات التي لم تجد وضعها في إطار القوالب التي كان العرب يستعملونها، فأوجدوا تخريجات بلاغية. وظهرت في ذات الوقت أبحاث حول **تأويل مشكل القرآن** تتحدّث عن قضايا عدّت إشكالاً، وثارت من أجلها مطاعن، فانتدب لها الرادّون يبيّنون عِوَجها ويردّون كيد المثيرين للإشكال إلى نحور مفتعليها، وخير من يمثّل ذلك كتاب (تأويل مشكل القرآن) لابن قتيبة الذي يقول عن سبب تأليفه الكتاب (وقد اعترض كتاب الله بالطعن ملحدون، ولغوا فيه وهجروا، واتّبعوا ﴿ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله﴾ بأنّها كليلة وأبصار عليلة، ونظر مدخول، فحرّفوا الكلام عن مواضعه وعدّلوه عن سبله، ثمّ قضوا عليه بالتناقض والاستحالة في اللحن، وفساد النظم والاختلاف...فأحببت أن أفصح عن كتاب الله، وأرمي من ورائه بالحجج النيّرة والبراهين البيّنة، وأكشف للناس ما يلبسون، فألفت هذا الكتاب جامعاً لتأويل مشكل القرآن[1]) وهكذا أُلفت كتب أخرى في زوايا البحث اللغوي والتفسيري والمعجمي فأُحيطت قواعد اللغة بتسجيلات لظواهر التراكيب الشعرية، وما تجري به عذابات الألسن في الشعر وفي المنثور، وفي نفوس العرب أساليب قارة

[1] . تأويل مشكل القرآن، ص. 77.

المنارة للاستشارات

وموروثة وأساليـــــــب مرتجلة آنية، ومن ذلك بسط النّحاة قواعد العربية بسطة شاملة، وحصلوا كلّ شيء، فأقاموا الحدود، وفرّعوا الأصول، واستفاضوا في الفروع، وشعارهم: **لأن أخطئ في خمسين مسألة ممّا بابه الرواية أفضل من أن أخطئ في مسألة واحدة قياسية/ فما أبيح افعلْ ودعْ ما لم يُبح**. وكان منهجهم في هذا قائما على التواتر، ومن ذلك حفل متن اللغة بشرح مفردات القرآن، ونشأ النّحو لعصمة اللسان من الخطإ في التلاوة أول الأمر، وعلوم البلاغة لجلاء روعة البيان القرآني. وكان القرآن محطّ كلّ دراسة تحت واق منيع هو: القرآن يُختار له، ولا يُختار عليه، وأنّه **اللسان العربي المبين. إلاّ أنّ** هذه الإحاطة كانت سبباً في أن تختلف قراءته وتتعدّد لدرجة يدخل بعضها في الشواذ والمرفوض، ومن هنا فقد نظر بعض النّحويين إلى هذه المسألة من باب الشكّ، فخطّأوا بعض القرّاء، وحدث صراع بين القرّاء والنّحاة في تلك الآيات التي لم توافق العرف اللغوي المستنبط من ديوان العرب.

- **القراءات القرآنية:** تشير المصادر إلى أنّ القراءة القرآنية سنّة متّبعة تلقاها الخلف عن السلف

عن رسول الله بالسند المتّصل، تجري على الرواية والأثر، لا على القياس ، وهي جزء من الأحرف السبعة التي نزل به القرآن على العرب الأميين بلغاتهم المتفاوتة، وتدخل في باب التيسير على البشر؛ لأن القرآن ليس منزلاً للعرب وحدهم، وإنّما هو للبشرية في كلّ زمان ومكان فهو عالمي، يفهمه المسلمون في كلّ عصر من العصور حسب عقولهم التي تتنامى تماشياً والأرضية المعرفية من عصر لآخر.

والذي يخيفنا ليس تعدّد القراءات التي قَبِلها السلف، وعدّوا القراءات السبعية مقبولة وصحيحة لأنّها وافقت العربية ولو بوجه ، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً، وصحّ سندها، فهي الأثبت في الأثر والأصحّ في السند،

المنارة للاستشارات

ولكن تجاوزت المسألة لتصبح القراءات السبعية عشر، ثم لتصبح أربع عشرة قراءة، وأوصلها بعضهم إلى أكثر من هذا بكثيـــــر،

ونصّ على ذلك الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ت 310هـ في كتابه (الجامع) بأنّها فاقت العشرين. ويكفينا أن نشير إلى الأربعة عشر من القراء، ثمّ نعرض رفضنا عدم اتّخاذ القرآن مدوّنة لتيسير القواعد.

السبعية ← العشرية ← الأربعة عشر

1- عبد الله بن عامر الشامي ت 118هـ.
2- عبد الله بن كثير المكي ت 120 هـ.
3- عاصم بن أبي النجود الكوفي ت 128 هـ.
4- أبو عمروا بن العلاء البصري 154 هـ.
5- حمزة بن حبيب الزياتي الكوفي ت 156 هـ.
6- نافع بن عبد الرحمان المدني ت 19 هـ.
7- علي بن حمزة الكسائي الكوفي189 هـ.
8- أبو جعفر القعقاع المدني 130 هـ.
9- خلف البزار الكوفي 189 هـ.
10- يعقوب الحضرمي 205 هـ.
11- إبن محيصن.
12- الأعمش
13- يحيى اليزيدي

المنارة للاستشارات

14-الحسن البصري[1].

وما يسجّل على هذه القراءات: القراءات السبعية يؤخذ بها دون طعن (محكّمة) حيث لا يقصد بها إلاّ تلك الوجوه التي سمح بها الرسول صلى الله عليه وسلم بقـــــراءة

النّص القرآني قصد التيسير والتي جاءت وفق لهجة من اللهجات العربية القديمة، وهذا معمول به في كل اللغات، لأنّه وسيلة من وسائل التيسير، كذلك كلّ ما ورد أنّه قرئ به جاز الاحتجاج به في العربية، لكن نجد القراءات العشر استنكرها بعض الأئمة وعدّوها من الشواذ، بل إنّ بعضهم يحظر التعبّد أو الصلاة بغير القراءة المتواترة، بَلْهَ الحديث عما تجاوز العشر وهي شاذة ومطعون فيها. أضف إلى ذلك إذا عدّت هذه القراءات لغات، وخرجت عن مجال اتّفاق الناقلين لكتاب الله واختلافهم في اللغة والإعراب والحذف والإثبات والتحريك والإسكان والفصل والاتّصال، وغير ذلك من هيئات النّحو، نكون خرجنا من منطق اللغة التي تميل إلى **الإحكام السديد والضبط**، لأنّنا نجد في بعض هذه القراءات على سبيل المثال: * فتح همزة إنّ بعد القول، وهذه الحالة تنصّ القراءة المتواترة على كسرها * وجود المؤنّث المجازي * ضمّ ما قبل واو الجماعة وياء المخاطبة * وجود القراءات التي جوّزت الكلمة الواحدة بوجهين أو بثلاثة أوجه... وهذا ما يؤدّي إلى نوع من التعليلات التي نجدها في كتب الفقه أو النّحو لتأويل هذه القراءات بدل تصحيح المقرئ، على اعتبار أنّه لا يخطأ، وهذا كلّه يستدعي الصرامة اللغوية التي تميل إلى الإحكام اللغوي الذي نجده في ما استحسنه العرب والرجوع إلى واقع استعمال العرب للغة بالقوّة.

[1] . القراءات الأربع الزائدة عن العشر، قراءات شاذة، لا يصحّ التعبّد بها ولا قراءتها في الصلاة، فينبغي اتّخاذ مزيد من التثبت والتحرّج والدقّة.

المنارة للاستشارات

• **بأية لغة نزل القرآن؟** نطرح هذا السؤال؛ لأنّ بعض الأقوال ترى بأنّ القرآن نزل بلغة قريش وهي اللغة المصفاة التي فضّلها الله دون غيرها من اللهجات العربية، وإذا سلّمنا بهذا الرأي فنناقض أقوالنا بأنّه نزل بلغة مشتركة يفهمها العرب كافة، وعلى هذا لابدّ من الارتكاز على دليل علمي ملموس لاستبعاد الأقوال المتحيّزة أو المجاملة أو التي تنظر إلى الجانب التقديسي لقبيلة قريش أو لمكة. فإذا تتبعنا الآيات التي تحدّثت عن نزول القرآن الكريم نجدها تنصّ على أنّه نزل **بلسان عربي مبين:**

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ يوسف 2.

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ ﴾ النحل: 103.

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ طه: 113.

﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴾ الشعراء: 192– 195.

﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ الزمر: 28.

﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ فصلت: 3.

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ فصلت: 44.

المنارة للاستشارات

﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ الأحقاف: 12.

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ الشورى: 7.

﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ الزخرف: 3.

﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا ﴾ الأحقاف: 12.

كما تنصّ أكثر الروايات والمصادر بأنّ القرآن الكريم **نزل بلغة العرب أجمعين**، فلقد فهمه العرب، وما استغلق عليهم في عمومه، وتمّت عملية النقل من صيغة غير مدركة إلى صيغة مدركة موّجهة إلى كافة البشر عن طريق **لغة العرب**، وجعله في متناول البشر الذين أنزل عليهم، أي أصبح صورة قابلة للإدراك البشري بعدما كان صورة غير مدركة للبشر لَما كان في اللوح المحفوظ، وإذا أشكل عليهم شيء كانوا يسألون الرسول فكان صلى الله عليه وسلم يفسّر مـــا كان غامضاً **دلالة لا ألفاظاً**؛ فيفصّل ما كان مجملاً، ويفرّع ويوضّح ما كان عاماً. وفي تلك الفترة التي كان الصحابة عرباً خلصاً يفهمون ويتذوّقون أساليب القرآن؛ لأنه نزل بلغتهم، وكانوا يفهمونه ونادراً ما يشكّل عليهم أمر آية أو كلمة. وبعد موت الرسول تصدّى الخلفاء والصحابة لتفسير الكتاب، فيروى عن عمر بن الخطاب أنّه قال على المنبر: (ما تقولون فيها؟ يقصد كلمة **(التخوّف)** في قوله تعالـى ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ النحل: 47، فسكتوا. فقال شيخ من هذيل فقال: هذه لغتنا. التخوّف هو التنقّص، فقال: هل تعرف العرب ذلك في أشعارها؟ فقال: نعم، قال شاعرنا أبو كبير:

تخوّف الرحل منها تامكاً قِرَداً كما تخوّف عود النبقة السّفن

المنارة للاستشارات

فقال عمر: عليكم بديوانكم لا تضلوا. قالوا: وما ديواننا؟ قال: **شعر الجاهلية**، فإنّ فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم[1]) ويقول ابن عباس: (الشعر ديوان العرب، فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب، رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه[2]) وفي رواية: إذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر، فإنّ الشعر ديوان العرب، ورواية تقول: أنّ ابن عباس(كان يعتمد على الاستشهاد بالشعر في شرح ألفاظ القرآن الكريم، وعلى ما أوتي من علم بالمغازي وأيام العرب وأخبار الأحبار. واستحثّ مجاهداً المكي أن يخطو خطوة أخرى بالتفسير مشجّعاً بما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّه قال: "القرآن ذلول ذو وجوه فاحملوه على أحسن وجوهه"[3]) وبذا سلك طريقَهم التابعون والمفسرون، وفي هذا المقام نستشهد بنافع بن الأزرق في سؤال له لابن عباس عن كلمة **(عزين)** في قولـــــــــه عالى ﴿عن اليمين وعن الشمال عزّين﴾: قال حَلَق الرفاق، فقيل له: وهل تعرف العرب ذلك قال: نعم، أما سمعت عبيد بن الأبرص وهو يقول:

فجاؤوا يُهرعون إليه حتى يكونوا حول منبره عزينا[4]

وتقول الروايات: إنّ نافع يسأل وابن عباس يجيب بالاحتجاج بكلام العرب وبأبيات من الشعر العربي في حوالي مائتين وخمسين موضعاً من القرآن. كما قامت فئة المفسّرين، وما تركوا فيه شيئاً إلاّ درسوه(قام منهج عقلي عرف بالإكثار من التفسير والجرأة – أحيانا– في تناول بعض آياته المتشابهة، من هؤلاء الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه والصحابيان الجليلان عبد الله بن

[1] . عبد الفتاح المصري "لغة هذيل" التراث العربي، مجلة اتّحاد الكتّاب العرب. سورية : 1984، العددان:14/13، ص.187.
[2] . جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن. القاهرة:1368، الجزء الأول، ص. 119.
[3] . عبد العزيز المجدوب، الرازي من خلال تفسيره، ط. 2. تونس/ليبيا: 1980، الدار العربية للكتاب، ص.19.
[4] . رمضان عبد التواب، فصول في فقه اللغة، ط.2 القاهرة: 1983، مكتبة الخانجي/ الرياض دار الرفاعي، ص. 110.

المنارة للاستشارات

مسعود وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما[1]) ولابدّ في هذا الموقع من التعرّض لحادثة طريفة عاشها صاحب الكتاب، عندما اختلف مع الكسائي في المسألة الزنبورية، فهل تعمل **إذا** عمل النسخ (رفع ونصب) أم لا تعمل، وكان هذا بحضور خليفة أموي الذي انطلق من اصطناع مقولة: كنت أظنّ أنّ النحلة أشدّ لسعاً من الزنبور، فإذا **هو هي**، أم فإذا **هو إياها**. فأجاب سيبويه فإذا النحلةُ زنبورٌ (هو هي، دون عمل إذا) واحتجّ بعديد الآيات: ﴿ فَأَلْقَـٰهَا **فَإِذَا** هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴾ طه: 20/ ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ الشعراء: 32/ ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ الشعراء: 45. رفعٌ ورفعٌ. وأما الكسائي فقد قال العكس: فإذا النحلةُ زنبوراً (هو هي، رفع ونصب) فحدث خلاف بين رأسي المدرستين، فمن يحلّ الإشكال، وهنا كان لابدّ أن يُلتجأ إلى العرب أصحاب الفصاحة والذين نزل بلغتهم القرآن، وبالفعل تقول الروايات بأن الخليفة استقدم أعراب قبيلة الحطمة التي حكمت لصالح الكسائي. وما يمكن أن يستنتج من هذا على أنّ ديوان العرب أقوى حجّة من غيره في المسائل التي لم ترد في القرآن.

وعلى العموم فإنّ القرآن لم ينزل بلغة أعجمية بل جاء على لسانهم ووفق ما كانوا ينطقون، يقول ابن قتيبة (... إنّ القرآن نزل بألفاظ العرب ومعانيها ومذاهبها في الإيجاز والاختصار، والإطالة والتوكيد والإشارة إلى الشيء، وإغماض بعض المعاني حتى لا يظهر عليه إلاّ اللقن، وإظهار بعضها، وضرب الأمثال لما خفي. ولو كان القرآن كله ظاهراً مكشوفاً حتى يستوي في معرفته العالم والجاهل لبطل التفاضل بين الناس، وسقطت المحنة وماتت الخواطر[2])

[1] . عبد العزيز المجدوب، الرازي من خلال تفسيره، ط. 2. تونس/ليبيا:1980، الدار العربية للكتاب، ص.18.
[2] . تأويل مشكل القرآن، ص.86.

المنارة للاستشارات

ويؤكّد هذا الأمر ابن خلدون: (أنّ القرآن نزل **بلغة العرب**، وكلّ أساليب بلاغتهم فكانوا كلّهم يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه[1]). وأمام هذا كان لابدّ أن يوضع له سياج لغوي نظراً للحون التي بدأت تعلق به، فقام اللغويون يجمعون مدوّناتهم من البوادي، بتسجيل كلّ ما يدور على ألسنتهم من كلمات وعبارات ووصفها، ثم أعطيت هذه المادة للنّحوي الذي تصرّف وقاس واستنبط ورتّب. وبذلك اشتغل النّحاة تبويباً ومنهجاً وما تركوا فيه شيئاً، بل وصل الأمر أن أعرب القرآن كاملاً. وقام في نفوسهم منهج متكامل لوضع قواعد النّحو من لغة العرب الواسعة كلّ السعة، وهي تحفل بكلّ ألوان الشعر والمقطّعات التي يمكن أن يجدوا فيها ضالتهم في التقعيد اللغوي(فإن نحن رجعنا إلى الشعر ألفيناه يحفل بكلّ ما أتعب النّحاة أنفسهم فيه، وجهدوا جهدهم لضبطه، وما إلى ذلك إلاّ لأن أولئك النّحاة حين انبروا لضبط قواعد الكلام وتسجيل ظواهر التراكيب والأساليب جعلوا نصب أعينهم في معظم أمرهم ما تيسّر لهم جمعه من القصائد والمقطّعات والأبيات، فكان **الشعر مادتهم الغزيرة ومنهلهم المورود**، إليه رجعوا أكثر ما رجعوا وعليه عوّلوا أكبر ما عوّلوا، ومنه **استخرجوا أوفر ما استخرجوا من القواعد والأحكام**[2]) وهذا كلّه باعتماد منهج يقوم على التواتر، ففي القرآن ما لا ينطبق عليه هذا المنهج، حيث نجد بعض الآيات القرآنية لا تواتر ولا شيوع فيها، علمـــــــاً أنّ الظاهرة اللغوية تُقاس على التواتر، بينما توجد هذه الصوَر في لسان العرب؛ ففيه القياسي والغالب وما هو كثير وما هو قليل وما هو نزر وما هو نادر وما هو شاذ، أضف إلى ذلك وجود الفروع العديدة في مجال التقديم والتأخير والحذوف والإيصال والإظهار والإضمار(ومن هنا فالأجدر الأخذ بالسائغ الحسن من الضرورات وهي التي يكون فيها الحذف أو الزيادة أو التغيير

[1] . المقدمة. القاهرة: المطبعة الأزهرية، ص. 404.
[2] محمد شوقي أمين"قول في النحو" مجلة مجمع اللغة العربية. القاهرة: 1975، الجزء 35، ص. 63.

المنارة للاستشارات

الذي يعتري اللفظة، أو يطرأ عليها ضمن القياس المعروفة نظائره، والذي يهدي فيه التركيب إلى القصد المراد بسهولة ويسر، مما ألفته النفس لكثرة شواهده وأمثلته[1]) وهذا موجود في لسان العرب بقوّة، ولذلك لم **يأخذوا قواعدهم من القرآن**، بل كانت الآيات شواهد استدلال في معظم حالات التقعيد، وأحياناً يتمّ تصحيح قواعد اللغة بالآيات المتواترة، وفي حالة عدم وجود ما يشير لذلك يُلتجأ إلى كلام العرب. وظهرت الملامح الأولى في النّحو على يد العالم اللغوي الخليل بن أحمد بتوظيف **لغة العرب الفصيحة**، وباستعمال منهج التواتر(أخذ الخليل النّص الفصيح وإن كان قائله ليس بالمعروف، وبنى قواعد النّحو التي تمكّن المتكلّم أو المتعلّم من انتحاء سمت العرب في كلامهم وتمكّن القارئ لكتاب الله من القراءة السليمة، وما ورد من كلام العرب مخالفاً لهذه القواعد، فإنّه حكم عليه بالشذوذ والشاذ صحيح، ولكنّه لا يتّفق مع القاعدة التي قُعدّت، لذا فإنه يحفظ ولا يقاس عليه[2]) وقد تجسّدت هذه المعطيات في كتاب سيبويه (الكتاب) الذي كان شافياً كافياً لمحتوى النّحو،لدرجة أنّ عالماً مثله قال: من أراد أن يضع كتاباً في النّحو فليستحي، وبعضهم تحرّج بالقول: هل ركبت البحر، وكان الجرمي يقول: أنا مذ ثلاثون سنة أفتي الناس في الفقه من كتاب سيبويه... إذ كان كتاب سيبويه يُتعلّم منه النظر والقياس، وهذا احترام للمادة العلمية التي حملها هذا الكتـــــــــاب المحيط، وللتحرّج العلمي الذي لا يرقى إليه الشكّ، لدرجة أن لقب **بقرآن النّحو**. وكان معيار سيبويه في هذا الأمر(... تحرّجه وتحرّج شيوخه من أن يدلي برأي أو يستنبط ضابطاً لا يعتمد فيه على ما يقوله أكثر العرب (عامتهم على حدّ تعبيره) ومع ذلك فلا يهدر ما قلّ استعماله إذا لم يخالف

[1] . خليل بنيان الحسون، في الضرورات الشعرية، ط. 1. لبنان: 1983، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ص. 76.

[2] . خليل أحمد عمايرة"القبائل الستّ والتقعيد النّحوي" مجلة اللسان العربي. الرباط: 1998، مكتب تنسيق التعريب، العدد الخامس والأربعون، ص. 88.

المنارة للاستشارات

القياس[1]) وهذا المعيار لم يخرج عمّا استحسنه العرب، والرجوع دائماً إلى واقع كلام العرب وهو المتواتر، ويعني المسموع بكثرة.

إذاً **القرآن كتشريع له كتابه، والنّحو كلغة له كتابه**، ومن هنا نستبعد مقولة من يرى بأن **القواعد أخذت من القرآن الكريم**؛ لأنّ القرآن لا يلتزم بمقتضى الظاهر في بعض آياته فأحياناً يضع المفرد بدل الجمع، وهذا لأمر اقتضاه الخالق ولأنّه يعجز عنه المخلوق، أضف إلى ذلك الحذوف الكثيرة لغايات رآها كذلك، وهناك مجموعة كبيرة من الضرائر. وإذا وقع إصرار بأنّ القواعد أخذت من القرآن، فلمّ نجد الخلاف النّحوي بين المدارس النّحوية، فالقرآن ثابت واضح لا اجتهاد فيما يستنبط منه، ثمّ لماذا أتعب اللغويون أنفسهم في جمع المادة اللغوية من سافلة العالية أو أعالي السافلة والقرآن بين أظهرهم، وهو مدوّن في مصحف عثمان، ولّم ساح العلماء في الفيافي معرّضين أنفسهم للموت في الصحراء التي لا حدود لها، بغية التوثيق والوصول إلى المادة الأولية التي على ضوئها نزل القرآن، وهي المصدر الأول قبل كلّ شيء، ألا يمكننا أن نتصوّر هذا العمل الأولي المتقن بأنّه عمل مخاطرة وجبّار في ذات الوقت، وكلّه من أجل الدقّة العلمية لا غير، فهو ليس سهلاً بل يحتاج إلى فِرَق وإلى وسائل جبّارة، وإلى جهود معتبرة، فهو إحصاء بالمعنى المعاصر، يتطلّب تجنيداً كلياً للمرور على كلّ القبائل، وعلى كثير من الأفراد، ومراعاة بعض الحالات الخاصة، فهل يعني هذا أراد اللغويون القيام بسياحة صحراوية! أركبوا رؤوسهم؟ وإذا بحثنا في المادة اللغوية التي وقع الاحتجاج بها في **قرآن النّحو** نجد عدد شواهد الشعر يقرب من ثلاثة أضعاف شواهد القرآن، فعدد شواهد الكتاب هو 373 آية، ومن الشعر والرجز 1061 [2] ، والأبيات غير المنسوبة –حسب

[1] . عبد الرحمان الحاج صالح "الجوانب العلمية المعاصرة في تراث الخليل وسيبويه" مجلة مجمع اللغة العربية.القاهرة: 2001، العدد الثاني والتسعون، ص. 156.

[2] . على النجدي ناصف "نحو القرآن مجلة مجمع اللغة العربية. القاهرة: 1974، الجزء 34، ص.143.

المنارة للاستشارات

دراساتنا[1]– هي خمسون شاهدا شعرياً ولكن رمضان عبد التواب يقول: إنّ العدد غير صحيح فهو 342 موضعاً منها 43 موضعا سُميت فيها قبيلة الشاعر، ولم ينصّ على اسمه، مثل: رجل من قشير، أو رجل من بني دارم، أو رجل من مذحج، أو رجل من فزارة أو رجل من طيبة ويواصل ... وقد نسب الأعلم الشنتمري في شرحه لشواهد الكتاب المسمى (تحصيل عين الذهب معدن جوهر الأدب في علم مجازات العرب) 57 موضعاً، أي أنّ ما بقي بعد ذلك غير منسوب تماماً هي 242 موضعاً[2] ويكون الحساب كما يلي: 57+43 = 100.342–100–242 شاهداً مجهول القائل. وفي هذا المجال يطرح الأستاذ فخر الدين قباوة سؤالاً وهو: (ما سبب انصراف النّحاة عن القرآن الكريم عندما قعّدوا قواعدهم، إلى الشعر والنثر؟ وهل يعني هذا أنّ القرآن الكريم بقراءاته لا يغطّي متطلّبات اللغة؟ فأجاب : لم ينصرف النّحاة عن القرآن كل الانصراف، بل كان الداعي إلى هذا الدرس هو صيانة النّص القرآني من اللحن، إلاّ أنّ الممارسة العملية للدرس النّحوي كشفت للرواد أنّ ميدان البحث يكون محدوداً إذا اقتصر على النماذج الفصيحة . فالحياة اللغوية تضجّ بالمستويات المختلفة المتباينة ... ودراسة النّحو يجب أن تشمل ذلك كلّه لتكون بحثاً يخدم القرآن الكريم ولغته في كلّ مجال. ويواصل: إنّ القرآن الحبيب تضمّن بعض المفردات المعرّبة... غير أنّه لم يكن ليستوعب تلك الأشكال التعبيرية اليوميـــة المتجدّدة وهي بعيدة عن غاياته وتوجيهاته، وإنّما يمثّلها حقيقة ما كان يجري على ألسنة العرب الفصحاء من شعر ونثر، فلابدّ من الرجوع إليه حتى يتمثّل فيه العمق والدقّة[3]).

[1] . ذكرت هذا في أكثر من مؤلف لي، وهذا ما علّمنا به شيوخنا، ونقلناه رواية عنهم.
[2] . بحوث ومقالات في اللغة، ط. 1. القاهر: 1982، مكتبة الخانجي، ودار الرفاعي بالرياض، ص. 90.
[3] . المهارات اللغوية وعروبة اللسان، ط.1 بيروت: 1999، دار الفكر/ دمشق دار الفكر، ص.93.

المنارة للاستشارات

والخلاصة التي يمكن استنتاجها: آراء تستبعد أن تكون لغة قريش هي التي نزل بها القرآن، وهي اللغة الفصحى، وآراء تقول إنّ اللغة الفصحى التي نزل بها القرآن الكريم هي لهجة قريش. وأمام هذا فإنه لا يوجد دليل يؤكّد نزول القرآن بلغة قريش، اللهمّ بعض الآراء المتشيّعة مثل استعمال بعضهم لمصطلح (لسان قريش) واللسان لا يستعمل للهجة/ اللغة على اعتبار أنّه أوسع منهما، وربّما أخذوا هذا من قوله تعالى:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ ﴾ إبراهيم:4.

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ﴾ مريم: 97.

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ الدخان: 58.

وعدّوا هذا على أنّه لسان محمد صلى الله عليه وسلم القرشي المكي، ويتناسون بأنّ محمد تربّى في هوزان ونشأ في هذيل واسترضع في بني سعد التي تطبع من يحيا في رحابها ويعيش في مساحتها على سليقة فصيحة، ولسان ذليق وبداهة خاصة، واستحواذ إلى جيّد الكلام، وهو الذي يقول: "أنا أفصح العرب بيد أني من قريش وإني نشأت في بني ساعدة" رواه مسلم والبخاري، وفي مكان آخر يقول : "أنا أفصح من نطق بالضاد" ويعني هذا أنّه فصيح ولا مثيل له، وهو رسول الله يوحى له، ومحال أن يقع في الخطإ، ولا يمكن أن يضاهيه البشر فصاحة رغم أنّه بشر، إلاّ أنّ شروط الفصاحة في مسقط رأسه ناقصة، وبالتالي لما أُرسل إلى الأماكن التي تخلو من الاختلاط هذا من جهة. ومن جهة أخرى يبدو لنا أنّ من يرى بأنّ القرآن أنزل بلغة قريش يعتمدون حجّة أخرى وهي لجنة تدوين مصحف عثمان رضي الله عنه المكوّنة من: عبد الله بن الزبير **(قرشي)** +

المنارة للاستشارات

عبد الرحمان بن الحارث بن هشام**(قرشي)** + سعيد بن العاص **(قرشي)** + زيد بن ثابت **(أنصاري)** فقال لهم: إذا اختلفتم أنتم وزيد فاكتبوه **بلغة قريش، فإن القرآن أنزل بلغتهم**. وهذه اللجنة تأخذ بمبدإ الأغلبية؛ لأن أعضاءها قرشيون ويبقى إلى أيّ مدى يكون هذا القول صحيحاً، وتحت أيّ ظرف قيل. ونرجّح عدم نزول القرآن بلغة قريش – وهي محدودة– ولو حصل ذلك لما كان للقرآن هذا الانتشار، ويضاف إلى ذلك عامل الاختلاط الذي يعيق عملية التفصيح، فلا فصاحة حيث يكون الاختلاط (ينظر الخريطة رقم1). كما لا يجب أن ننسى بأن قريش تنافسها تميم في اللغة، وتميم لها الصدارة في نجد، ولا ننسى كذلك مسألة لهجة العدنانيين ولهجة القحطانيين ولا يمكن إغفال تغلغل اللغات الأخرى في الجزيرة العربية، ولقد حصل هذا بفعل التبادل التجاري ومكة التي تحتكم إلى المكان المقدّس، فهناك جرى الأخذ من اللغات الأجنبية، باعتبارها موطن الحضر، إلاّ أنّ للغة/ للهجة قريش الحظ الأوفر في لغة القرآن ربّما؛ لأنّ لغتها جامعة لكلام العرب وسهلة. ولكن لا دليل يثبت على أنّ القرآن الكريم نزل بلغة قريش، وما يتوفَّر من أدلة ينفي نزول القرآن بهذه اللغة، فالقرآن أنزل **بلسان العرب أجمعين** يفهمه العرب جميعهم، اللهمّ بعض الحالات الاستثنائية التي هي مدار الحالات الفردية ولا يُقاس عليها.

وفي هذه النقطة يؤكّد الباحثون بأن لغة القرآن هي عربية أعرابية عروبية، فلا عجمة فيه، وما أُشكل من كلمة على العرب هو من كلام العرب القديم، ويدخل في الجانب التاريخي غير المستعمل وهذا ما يراه الأستاذ جعفر دكّ الباب، وهو من الناكرين حتى لمصطلح **(اللغـــات الساميـة)** لما تستنبطه العبارة من اعتبارات سياسية وإقليمية وثقافية تستغلها الصهيونية ويقترح تسمية

المنارة للاستشارات

(اللغات العربية القديمة) أو (اللغات الأعرابية[1]) واستعمال القرآن لمصطلح (اللسان) يعني الجامع، فلم يستعمل(اللغة) والقرآن لم ينزل بسبع لغات، بل هي: الأوجه التي يقع فيها التغاير بتفاوت المعنى أو تغيير اللفظة، وفسّرها بعض الباحثين بأنّها التغاير في: إثبات كلمة/تغيير الكلمة/ تغيير أوجه الإعراب/ إسقاط كلمة/ تغيير ترتيب الكلمة/ تقديم وتأخير/ تغيير الحركة الإعرابية. كما يؤكّد الأستاذ علي فهمي خشيم هذا الأمر باستبعاده نزول القرآن بلغة غير عروبية: واللذين قالوا بهذا هم لا يعرفون اللغة العربية(العروبية) التي تشمل مصطلح اللغات السامية[2]، ويخطّيء كلّ أولئك الذين قالوا بورود الألفاظ الأجنبية في القرآن الكريم، فهم يجهلون عروبية اللغة لا غير. ونراه يستدلّ في هذا المقام على المنهج المبني على الجذور اللغوية الأولى للألفاظ العربية التي يدّعي أنّها عجمية، ويقارنها بالكشوفات الحديثة للغات العروبية (السامية) ويصل إلى الأصول الأولى للعربية الخالصة، ويخلص إلى أنّه لا عجمة في كتاب الله العزيز، وإنّه نزل بلسان عربي مبين، والعجم هم الذين أخذوا عن العربية وحرّفوا ألفاظها، وما ورد من كلمات في القرآن الكريم التي تبدو لنا عجمية (توهّم) فهي عروبية. كما سبق أن طرح الموضوع من باب هل وُجد المعرّب والدخيل في القرآن الكريم، فنرى فريقاً ينفي ذلك أمثال: الشافعي والطبري، وأبو عبيدة معمر بن المثنى، وابن فارس، ومجاهد، وعكرمة، وأحمد محمد شاكر، وعبد العال سالم مكرم؛ لأنّ القرآن نصّ صراحـــــــة على أنه نزل بلسان عربي مبين، ولو أتى بغيره لما فهمه العرب، والعربية أوسع من أن تستعين باللفظ الأجنبي، فهي التي وضعت مائة وخمسين اسما للأسد. وفريقا يقول بأنّه لا يمكن أن يتمّ تبادل

[1] . ينظر: جعفر دكّ الباب، مقالاته حول اللسان العربي المبين في كلّ من مجلتي: التراث العربي، الصادرة عن اتّحاد الكتاب العرب بسورية. ومجلة اللسان العربي الصادرة عن مكتب تنسيق التعريب بالرباط. وكتاب علي فهمي خشيم: هل في القرآن أعجمي.

[2] . هل في القرآن أعجمين ط.1.بيروت:1997، دار الشرق الأوسط.

المنارة للاستشارات

اقتصادي دون تأثير وتبادل لغوي، أمثال : ابن جني، وأبو ميسرة، والضحّاك، وسعيد بن جبير والسيوطي، ورمضان عبد التواب، فالقرآن فيه من كلّ لسان، وأنّه نزل على البشر كافة، ووجود ألفاظ ليست من أصول عربية ظاهرة، أضف إلى ذلك عامل المغلوب مولع بلغة الغالب، بل ذهب بعض هؤلاء للقول بأنّه لا توجد لغة خالية من الدخيل، كما لا توجد عرقية صافية.

ونخلص إلى أنّه لا يمكن نكران تبادل التأثير والتأثّر في اللغات فهو قانون اجتماعي كان ولا يزال قائماً ولكن هناك من الكلمات الأجنبية التي أخذت طابع وذوق العربية فأصبحت منها، ولا يخسّ المستعمل بغرابتها ونميل إلى هذا الرأي بأنّ الاحتكاك اللغوي يؤدّي بالضرورة إلى التأثير والتأثّر، والعرب في عهودهم الأولى احتكوا باليمنيين والأحباش والفرس والبيزنط، إلاّ أنّ اللغة العربية هي التي أثّرت أكثر أكثر ممّا أخذت. ويبقى رأي الجمهور في هذا المجال له وزنه، بأنّهم يقولون: بأنّه ليس في كتاب الله شيء بغير لغة العرب، مع إقرارهم بأنّ العرب أخذوا من اللغات الأخرى ألفاظاً أعطوها ذوق العربية فدخلت قاموسها وأصبحت منها.

- **هل اعتُمدت لغة قريش في المدوّنة التقعيدية:** يأتي الحديث هنا تأكيداً للمقال السابق بأية لغة نزل القرآن الكريم؟ ورأيت تأكيده بطرح سؤال يقاربه معنى: هل اعتُمدت لغة قريش في المدوّنة التقعيدية؟ وستكون الإجابة من خلال المنهج الذي أعتمده، وهو كما يلي:

– الاعتماد على الشعر لا على النثر(الشعر ديوان العرب على ما قال به القدامى) وباعتباره أقوى وأكثر في الاستشهادات النّحوية.

– اعتماد مدوّنة الشعراء الذين وقع الاحتجاج بشواهدهم في النّحو (عيّنة شبه عشوائية وهي ممثلة بنسبة تتجاوز 95[1] %).

[1] . أعجمي: الخزيمي.

المنارة للاستشارات

– الشعراء المعتمدون من العصر الجاهلي والإسلامي والأموي، يحتجّ بهم عدا بعض المولّدين الذي لم يحتج بهم البعض.

– الوصول إلى إجراء دراسة إحصائية للقبائل التي أخذت لغاتها مدوّنة لوضع القواعد النّحوية.

– الخلاصة: **هل اعتمدت لغة قريش لغة تقعيد نحوي؟**

أموي: أبو الشيص. ــ
أنصاري: الأحوص/ صريح الغواني/حسان بن ثابت/
قبيلة أسد: القيشر/ الكميت/ أيمن بنخُريم/أبو دلامة/ابن دارة/بشر بن أبي حازم (6).
قبيلة أمية: عبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان العرجي. – قبيلة إياد: لقيط بن يعمر/أبودؤاد الأيادي.-
قبيلة بكر: المسيّب/الحراث بن حلزة. – قبيلة تغلب: العتابي/الأخطل/القطامي/عمر بن كلثوم.
قبيلة تميم: عمر بن لجأ الراجز/لقيط بن زرارة/عمرو بن الأهتم/عمرو بن معدي كرب/علقمة بن عبدة/عدي بن زياد/سلامة بن جندل(7).
قبيلة ثعلب: متمم بن النويرة. – قبيلة ثقيف: أمية بن أبي الصلت/ أبو محجن. قبيلة جمح: أبو دهبل الجمحي. –
قبيلة حارثة: الأسود بن يعفر. – قبيلة حنيفة: العباس بن الأحنف.– قبيلة خثعم: ابن الدمية. – قبيلة خزاعة:
دعبل/كثير عبد الرحمان بن أبي جمعة. – قبيلة دارم: مسكين الدرامي. – قبيلة ربيعة: النابغة الجعدي/المرقش الأكبر/المرقش الأصغر/
قبيلة سدوس: بشار بن برد. – قبيلة سعد: الأحيمر السعدي/سليك بن سُلكة/عمروبن قميئة/طرفة بن العبد. – قبيلة سليم: أشجع بني سليم/الخنساء. – قبيلة شماس: المخبّل ربيعة ابن مالك. – قبيلة ضبيعة: المتلمس. – قبيلة طئر: بن عنتر بن وائل ابن الطئرية.
قبيلة طيء: الطرماح/زيد الخير/أبو زيد الطائي/حاتم بن عبد الله الطائي(4).
العراق: العجاج الراجز. – قبيلة عامر: ابن قيس الرقيات/ عامر بن الطفيل. – قبيلة عبس: عروة بن الورد. –
الحطيئة/عنترة بن شداد. – قبيلة عدوان:ذو الإصبع العدواني. – قبيلة عذرة: عروة بن حزام/ جميل بن معمر العذري.
قبيلة عكل: سويد بن كراع. – قبيلة العنبر: عبيد بن أيوب.
قبيلة عنزة: أبو العتاهية.
قبيلة عجل: أبو النجم الراجز/ الأغلب الراجز. – قبيلة عجلان:ابن مقبل. – قبيلة عقيل: قيس بن معاذ المجنون/توبة بن الحمير/ليلى الأخيلية. – قبيلة غطفان: مالك بن أسماء/النابغة . – قبيلة فرغان: خلف الأحمر. –
قبيلة فهم: تأبّط شراً. قبيلة قضاعة: ابن الرقاع.
قبيلة قيس: إبراهيم بن هرمة/الأعور الشني/خداش بن زهير/زياد الأعجم/الأعشى ميمون/ النابغة الذبياني(6).
الكوفة: حمّاد عجرد.
قبيلة كنانة: أبو الأسود الدؤلي/قيس بن ذريح(2).
قبيلة كندة: المقنع بن الصمة. – قبيلة كليب: جرير بن عطية. – قبيلة لحيان: المتنخّل. – قبيلة ليث: عروة بن أذينة. – قبيلة مازن/مزينة: مالك بن الريب/زهير. – قبيلة مخزوم: عمر بن أبي ربيعة. – قبيلة مرّو: ابن ميّادة/عبد الله بن همهمام. – قبيلة مضر: أوس بن حجر. – قبيلة مناة: ذو الرمة. – نجد: المهلهل عدي بن ربيعة/ امرؤ القيس. – قبيلة نكرة: المثقب العبدي/الممزّق العبدي. – قبيلة النمر/النمير: منصور بن سلمة بن الزبرقان/أبو حية النميري/حصين بن معاوية الراعي. – قبيلة الهجيم: سحيم بن الأعرف.
قبيلة هذيل: أبو خراش/ مالك بن الحارث الهذلي/خويلد بن مطحل/أبو ذؤيب الهذلي/حُميد بن ثور الهذلي(5).
قبيلة يربوع: ابن مناذر. – قبيلة يشكر: المنخل اليشكري/ سويد بن أبي كاهل. – اليمن: أبو نواس.

المنارة للاستشارات

إنّه بعد الحيثيات التي خرجت بها هذه العيّنة نرى الآتي:

أولا: يصعب الوصول إلى مرابض هذه القبائل جميعها، فهناك لم تكن الحدود بين هذه القبائل قائمة والأعراب كانوا ينشدون المراعي، وأحياناً تنتقل قبيلة إلى جوار قبيلة أخرى مدة، ثم تغادر، وقد تتداخل الحدود الرعوية بينها، وقد تكون الغارات سبباً في الاستيلاء على جهات قبيلة من القبائل، ومن هنا فإن غياب الخرائط المثبتة لتواجد القبائل يجعل ما نتوصّل إليه يحتاج إلى تدقيق(ينظر الخريطة رقم2).

ثانيا: بعملية بسيطة نرى قبيلة **تميم** تحتلّ رقم واحد، ثمّ قبيلة **أسد** و**قيس** في الرتبة الثانية ثم قبيلة **هذيل** فقبيلة **طيئ**، وآخرها **كنانة**. ويفهم من هذا أنّ **القبائل الستّ** التي وقع التقعيد اللغوي من لغتها ممثّلة بنسب متفاوتة. وهذه النقطة يجب توضيحها بشكل جيّد؛ حيث إنّ اللغويين القدامى والنّحاة لم يذكروا هذه القبائل ويكون أول من أشار إليها الفارابي وهو الذي مات أواخر القرن الرابع، فلمّ لم يذكرها سيبويه مثلاً، علماً أنّ أبا عمرو بن العلاء ذكر سافلة العالية/ هوازن/ سعد /بكر... وسيبويه يذكر قبائل قصين، فلم نجد ذكراً لها في القبائل بعد مرور قرنين ونصف قرن، أو انقسمت إلى بطون متشعّبة بفضـــــــــل التعداد البشري، وبفعل الترحال، وقد يكون ذلك؛ لأنّ القبائل التي ذكرها القدامى بأنّ القرآن نزل بلغتها لم تظهر في نصّ الفارابي، ويؤكّد السيوطي ذلك: روى أبو عبيدة عن طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: نزل القرآن على سبع لغات، منها خمسة بلغة العَجُز من هوازن وهم الذين يقال لهم عُليا هوازن، وهم خمس قبائل أو أربع، منها سعد بن بكر، وجُشم بن بكر، ونصر بن معاوية، وثقيف. قال أبو عبيدة: وأحسب أفصح هؤلاء بني سعد بن بكر، وذلك لقول رسول الله: أنا أفصح العرب بيد أنّي من قريش، وإنّي نشأت في بني سعد بن بكر. وكان مسترضعاً فيهم، وهم الذين قال فيهم أبو عمرو بن

المنارة للاستشارات

العلاء: أفصح العرب عُليا هوازن وسفلى تميم[1]). ومن خلال هذا الشاهد لا نجد القبائل المنصوص عليها في البحوث المعاصرة، ويبدو لنا بأنّ حركة الانتقال الطبيعية فعلت فعلها في الاختلاط.

ثالثاً: لا ذكر ولا وجود لقبيلة قريش في هذه العيّنة، ولم نعثر على شاعر ينتمي قَبَلياً لقريش، وأرجعنا هذا لسببين: أولهما قبل الإسلام: فهم أهل تجارة، وليسوا أهل إعطاء الكلام، والغريب في الأمر أنّ الأسواق الشعرية (عكاظ/المجّنة/ ذي المجاز) توجد في مرابضهم. وثانيهما بعد الإسلام: فقد نهى القرآن عن قول الشعر في قوله تعالى ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ ﴾ الشعراء: 224– 227. ولهذا لم يهتموا بهذه الحِرفة، والدليل على ذلك تراجع شعر حسان بن ثابت بشكل ملحوظ بعدَ الإسلام.

رابعاً: هناك من الشعراء الذين ينتمون إلى بطن قبيلة قريش في بُعد من الأبعاد، كقبيلة عنزة، والأنصار والأمويين في صدر الإسلام، فنجد شعراء لهذه القبائل، إلاّ أنهم من القلّة بمكان.

خامساً: إنّ لغة قريش من خلال ما توصّلنا إليه غير معتمدة في التقعيد النّحوي، وبالتالي لم ينزل بها كلام الله. فلو نزل كلام الله بلغة قريش لما فهمه العرب أجمعون.

---

[1] . جلال الدين السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، شرح وتعليق: محمد جاد المولى بك + محمد أبو الفضل إبراهيم + علي محمد البجاوي. بيروت: 1986، المكتبة العصرية بصيدا، الجزء الأول، ص. 210 – 211.

المنارة للاستشارات

- **لماذا استبعدت لغة قريش من لغات التقعيد؟** كان النّحاة أصحاب معايير، فلقد بسطوا سلطتهم اللغوية على قواعد يجب أن تحترم، واعتمدوا معايير دقيقة للصفاء اللغوي، وجدوا خمسة/ست قبائل تتوفّر فيها الشروط التالية، وهي: الإيغال في البداوة + التوحّش + العيش في القفار + عدم التقيّد بقانون وضعي + العيش على الرعي + عدم الاختلاط بالعجم. وتمثّل هذا المعيار في: قيس/أسد/تميم/طيء/هذيل، عند الفارابي وفي نصّ آخر يذكر ستّة في كتاب(الألفاظ والحروف). وقيس/أسد/تميم/هذيل/بعض كنانة/بعض الطائيين، عند السيوطي. وما وجدنا ذكراً لقبيلة قريش اللّهم بعض الآحاد الذين يصنّفونها في كنانة[1]، وبعضهم يرى أنّها تنتمي إلى قبيلة تميم. وأما الإشارة الصريحة فلا وجود لها. وإذا أخضعنا موقع القبائل المحتجّ بها فنرى إلى جانب المعايير العلمية الكثافة السكانية للناطقين بهذه اللغات، والقواسم اللغوية المشتركة، والمحافظة على اللغة الأم سليمة كما ينطقها الأولون. كما وضعوا معياراً آخر يصرف القبائل التي لم تؤخذ عنها اللغة ويتمثّل هذا المعيار في: الاحتكاك بالأجانب عن طريق المجاورة بالسكن + النطق بغير العربية + الاحتكاك بالتجار + التواجد في التجمّعات السكانية (كانت قريش أجود العرب انقياداً للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعاً، وأبينها إبانة عمّا في النفس، والذيـــــن عنهم نقلت اللغة العربية، وبهم اقتُديَ، وعنهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم: **قيس وتميم وأسد** فإنّ هؤلاء هو الذين عنهم أكثر ما أُخذ ومعظمه، وعليهم اتُكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف، ثم **هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين**، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم. ويواصل قائلاً ... وبالجملة فإنّه لم يؤخذ عن حضري قط، ولا عن

[1] . شعبان عوض محمد العبيدي، النّحو العربي ومناهج التأليف والتحليل. ليبيا: 1989، منشورات جامعة قار يونس، ص.346.

المنارة للاستشارات

سكان البراري ممّن كان يسكن أطراف بلادهم التي تجاور سائر الأمم الذين حولهم، فإنّه لم يؤخذ من لخم ولا من جذام فإنّهم كانوا مجاورين لأهل مصر والقبط، ولا من قضاعة وأكثرهم نصارى يقرأون في صلاتهم بغير العربية، ولا من تغلب ول من النمر فإنّهم كانوا بالجزيرة مجاورين للنبط والفرس، ولا من عبد القيس لأنّهم سكان البحرين مخالطين للهند والفرس ولا من أزدعمان لمخالطتهم للهند والفرس، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة ولولادة الحبشة فيهم ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة، ولا من ثقيف وسكان الطائف لمخالطتهم تجار الأمم المقيمين عندهم، ولا من ثقيف وسكان الطائف لمخالطتهم تجار الأمم المقيمين عندهم، ولا من حاضرة الحجاز لأنّ الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدأوا ينقلون لسان العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم، والذي نقل اللغة واللسان العربي عن هؤلاء وأثبتها **في كتاب فصيّرها علماً وصناعة أهل البصرة والكوفة[1] فقط من بين أمصار العرب[2]**). واستناداً إلى هذا النّص فإنّ العرب الذين تمّ استبعادهم عن المدوّنة اللغوية كانت للأسباب التاليـــــة:

- الحضر: بحكم الاختلاط الذي يؤدّي إلى الاحتكاك وظهور أثر لغة أجنبية في اللغة العربية.
- المجاورون لغير العرب.

---

[1] . لقد عوّدنا مشايخنا على جلب النّص أعلاه للاحتجاج بالقبائل التي لا يحتجّ بها، ولكنّهم يوقفون النّص عند آخر كلمة وهي ألسنتهم، ويغلقون علامة التنصيص. وبغية التحقيق رجعنا إلى المزهر للسيوطي في جزئه الأول، ص.211-212. ونجده يضيف ما وقع تعريضه في هذه الصفحة، ولهو أم خطير، يجب توضيحه: هناك من اللغويين ومن النّحاة من اعتمد لغات هذه القبائل التي لم تعد لغتها فصيحة لعوامل ذكرناها، وهي عوامل موضوعية في عمومها، ولكن هناك من اعتدّ بها وأثبت لغتها واستخرج منها القواعد، وجعل علمها صناعة، وهم على وجه الخصوص أهل البصرة والكوفة. ويعني هذا مؤسسي النّحو العربي، فالبصرة مدرسة مقعّدة للنّحو، والكوفة تالية لها، وقد وافقت على كثير من أصولها. فأين الخلل في هذا القول: يعني أنّ المدوّنة اللغوية ليست مأخوذة كلّها من القبائل الستّ، بل هناك اجتهادات صناعية وأشياء افتراضية جاء بها التنافس العلمي بين المصريْن أثناء تقعيد النّحو من كلام العرب، والذي لم يتحدّد بشكل دقيق.

[2] . السيوطي، الاقتراح في أصول النّحو، تح: أحمد محمد قاسم، ط.1. القاهرة : 1396هـ/1976، مطبعة السعادة، ص. 57.

المنارة للاستشارات

- القارئون بغير العربية.
- المخالطون لغير العرب.
- المخالطون للتّجار.
- حاضرة الحجاز.

وإذا راعينا هذا المعيار فإنّ قبيلة قريش تُستثنى بحكم عاملي **الحضر والاختلاط**. وهذه دلالة قاطعة على أنّ **لغة قريش لم تؤخذ منها قواعد اللغة**، وأسبغت عليها الهالة نظراً للمكان الذي تتواجد فيه، وبحكم العصبية العربية والسياسية التي كانت لها قبل الإسلام وبعده. وإنّ الجانب العلمي يفرض علينا الوصول إلى نتائج يقينية من خلال مسلّمات واضحة. كما وضعوا شروطاً دقيقة للراوي اللغوي:

1- أن يكون من صميم أهل البلدة ويعيش فيها.
2- ألا يكون قد نزح منها واستقرّ مدداً ثم عاد.
3- أن لا يكون متأثراً بعوامل ثقافية احتكاكية.

وكلّ هذا حفاظاً على **تهيئة لغوية** صارمة للغة العربية بغية بقائها صافية لا تشوبها لكنة أجنبية، وبالطبع يكون ذلك المحافظة على روح القرآن الكريم كما جاءنا مروروياً من الرسول صلى الله عليه وسلم.

ولم يكتفوا بتحديد الرقعة السكانية (المكانية) بل حدّدوا المدة الزمانية التي خصّصوها في 150 سنة بعد الإسلام في الحضر، ونهاية القرن الرابع في المَدَر، لأن بعد ذلك لم يبق عربي سلم لسانه من أثر التأثير الأجنبـــــــــــي، وهنا كان لابدّ أن تغلق المدوّنة اللغوية كي لا تتمطّط القوانين اللغوية، وانتهت البحوث اللغوية على يد الطبقة العاشرة في ذات الفترة. ومع هذا فإنّ هذه الدقّة لم تحترم في بعدها العام، فهناك خروق على يدّ بعض النّحويين، فنجد بعض شيوخ العربية يلحّنون الفرزدق ويخطّئون الكُميت وذا الرمة كأبي عمرو بن العلاء، وابن

المنارة للاستشارات

أبي إسحاق الحضرمي والحسن البصري[1]) ونرى عبد القاهر الجرجاني يستشهد بشعر المتنبي كما نجد الزمخشري يقول عن أبي تمام: لِمَ لا نجعل ما يقوله من شعر بمنزلة ما يرويه من أشعار للعرب في حماسته (وهو إن كان محدثاً لا يستشهد بشعره في اللغة فهو من علماء العربية، فأجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه، ألا ترى إلى قول العلماء: الدليل عليه بيت الحماسة فيقنعون بذلك لوثوقهم بروايته وإتقانه[2]) كما نجده في معجمه (أساس البلاغة) أورد شواهد عديدة تمثّل المراحل التطوّرية للدلالة في اللفظة العربية، وأبرزها الشعر العربي وكلام العرب الفصحاء والبلغاء، ثمّ القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، كما نجد عبد القاهر يستشهد بالمتنبي.

•**ماهي لغة قريش؟** لقد احتلت قريش الصدارة في الحجاز ، واستقرّت الأمور لصالح مكة بسبب المركزية الدينية، وبذا لصالح **لهجة قريش** التي هي فرع من فروع **لسان العرب**، وهي اللغة المُصفاة والتي حصل فيها التفاعل الحضاري لأنّ القرشيين (المكيون) أكثر تعاملاً مع غيرهم وانتقالاً بتجارتهم إلى اليمن والشام واستضافة للعرب في المناسبات الدينية والأدبية، كما كانت لغتهم وليدة التفاعل والتخيّر، بالإضافة إلى السليقة والطبع، وإلى طرح اللهجات المذمومة، ويؤكد هذا الأمر السيوطي نقلاً عن الفارابي(كانت قريش أجود العرب انتقاداً للأفصح من الألفاظ، وأسهلها على اللسان عند النطق وأحسنها مسموعاً وأبينها إبانة عمّا في النفس، والذيـــــن عنهم نقلت العربية وبهم اقتُدي، وعنهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم: قيس وتميم وأسد، فإنّ هؤلاء الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه، عليهم اتّكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف،

[1] . صلاح الدين الزعبلاوي، مسالك القول في النقد اللغوي، ط.1 سورية: 1984، الشركة المتّحدة للتوزيع، ص.23.

[2] . تفسير الكشّاف، تح/تع: محمد مرسي عامر. القاهرة: دار المصحف، الجزء الأول، ص. 220- 221.

المنارة للاستشارات

ثمّ هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم[1]) ونستشف من هذا الدليل بأنّ قريشاً كانت تنتقي ألفاظاً من اللغات الأخرى وتضيفها إلى لغتها، ولم **تكن لغتها من ديوان العرب الذي أخذت مدوّنة تقعيد،** وفي نصّ آخر لأحمد بن فارس يقول: (أجمع علماؤنا بكلام العرب والرواة لأشعارهم والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالهم أنّ قريشاً أفصح العرب ألسنة وأصفاهم لغة، وذلك أنّ الله عز وجل اختارهم من جميع العرب، واصطفاهم، واختار منهم نبي الرحمة محمد صلى الله عليه وسلم وكانت قريش – مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها – إذا أتتهم الوفود من **العرب تخيّروا من كلمهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم،** فاجتمع ما تخيّروا من تلك اللغات إلى نحائزهم وسلائقهم التي طبعوا عليها، فصاروا بذلك أفصح العرب. ألا ترى أنّك لا تجد في كلامهم عنعنة تميم، ولا عجرفية قيس، ولا كشكشة أسد، ولا كسكسة ربيعة، ولا الكسر الذي نسمعه من أسد وقيس، مثل: تعلمون ونعلم، ومثل شعير وبعير[2]). كما يرى ابن خلدون أنّ لغة قريش أصّح اللغات العربية وأصَرحها لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم. ومع هذه الفصاحة فإنّ لغتها لم تدخل في مدوّنة القواعد، وهذا لعامل واحد وهو التصنّع والاختلاط، أي أنّ لغتها اصطناعية، وهذا بحكم عوامل السيادة الدينية والاقتصادية قبل الإسلام، والدور المهمّ في الإسلام وهو جوار البيت وسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام. ومن هنا فإنّ المقعدّين استبعدوها كلغة نموذج، وهذا يؤدّي بنا إلى القول بأنّ لغة قريش **وضعية** في بعض مفرداتها، سهلة واضحة مفهومة نظـــــراً لعالميتها، وفصيحة في ذات الوقت. والفصاحة عند العرب هي الإبانة وخلوص الكلام والمتكلّم مما يشين من عيوب الكلام والنطق التي كانت في لغات بعض القبائل

[1] . السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، الجزء الأول، ص.211.
[2] . الصاحبي في فقه اللغة، ص.33.

المنارة للاستشارات

وهذا متوفّر في لهجة/لغة قريش التي تحتكم إلى عاملي السهولة والاستعمال، فكانت لغتها دولية بعد الإسلام. ولكن نفرّق بين السليقة التي تعني الطبع، وهي مرحلة من مراحل إتقان اللغة، أي دون تعلّم، والشعور بخصائص الكلام دون تعمّد أو تكلّف، فهي رهن بالاكتساب والتقليد والمران، ويراها أستاذنا عبد الرحمان الحاج صالح في ما وافق لغة العرب **بكثرة الاستعمال والتكلّم حسب العادة والسجية**، وهي غير موجودة في لغة قريش؛ لأنّ هذا النوع موجود عند العربي القحّ وهو السليقي الذي لا يخطأ، يتكلّم لغته دون معرفة قواعدها، فهي طبيعية، ويتكّلمها بالطبع، ولقدتمّ ضبط معاييرها في: التواتر/الطبع/الإيغال في البداوة/الفصاحة في المعنى، وهذا كلّه غير متوفر في البيئة المختلطة أو في الحضر كما قال به السيوطي. وهكذا نعلم أن لغة قريش لغة أهل مكة وما جاورها، وهي فصيحة، ولكن ليست لغة أصل للفصحى كما يرى الدكتور تمام حسان[1]. وهذا كلّه للعوامل التي ذكرناها وهي لا طبع فيها/ انتقائية (الخليط اللغوي).

- **نحو القرآن** : إنّ فكرة النّحو القرآني في الحقيقة قديمة، نشأت أثناء الدفاع عن القرآن عندما اصطدمت القواعد النّحوية بالآيات القرآنية المخالفة للعرف اللغوي الجاري عليه العرب، وغرضها اعتماد القرآن الكريم أساساً لكلّ قاعدة؛ باعتبار القرآن أولى من سواه عند تقعيد القواعد، فلقد دافع الفرّاء عن القرآن عند تعرّضه للآيات الشاذة بقوله: (الكتاب أعرب وأقوى في الحجّة من الشعر[2]) فأصحاب الفكرة يرون بأنّ النّص القرآني أصل، والنّحو تابع، فهم يتستّرون وراء قدسيـــة القرآن، ومن ذلك جاءت أفكارهم تنظيرية، وأحياناً عاطفية حيث لم يقدّموا أركان هذه الفكرة ، ولم يقدّموا أركان هذه الفكرة، ولم يقدّموا

[1] . الأصول، ص.74-75.
[2] . الفراء، معاني القرآن. مصر، الجزء الأول، ص. 14.

المنارة للاستشارات

الحلول الإجرائية للاصطدام اللغوي الموجود بين بعض الآيات وكلام العرب، ثمّ لم يعطوا الدليل القطعي لتلك القراءات المختلفة. فإذا كان الغرض أن نعيد النظر في القواعد التي وضعت بناءً على ما ورد في القرآن الكريم كلّه، فهذا من **باب الخيال**، لأنّ القواعد وضعت بناء على وصف كلّي للغة العربية في محالها وفي مختلف أوضاعها، وثمّ اعتماد منهج علمي ما قام في أية لغة من لغات العالم؛ لأنّ الهدف كان دينياً، ولهذا وقع تشدّد لا مثيل له، ومن هنا نرى صرامة لغوية كبيرة.

وإذا كان القصد أن نلغي ديوان العرب، ونبني نحواً جديدا من القرآن حسب ما يراه الأستاذ عبد الستار الجواري الذي يدعو إلى وصفية اللغة من خلال القرآن، بهدف اتّخاذه مصدراً لاستخلاص قواعد النّحو، دون النظر إلى غيره، فهذا وهم وأيّ وهم . كما قال قبله الأستاذ أحمد مكي الأنصاري يجب إعادة النظر في القواعد بحيث تصنّف قسمين: قسم درجة أولى (كثيرة وأكثر) وقسم درجة ثانية(كثيرة وقليلة) وحجّته في هذا طغيان قواعد النّحاة (الطغاة) وخاصة البصريين الذين جاوزوا الحدّ المعقول، وأسرفوا على أنفسهم في اللغة والدين، ويقترح أن تتسّع القاعدة فتشمل جميع الوارد من الشواهد، وهذا مناصرة لمن يقول: علينا تصحيح القواعد بالقراءة[1]. وإنّه لمن الصعوبة بمكان ما يطرحه الأستاذ الأنصاري من هذه الأشياء التي لا تخطر على بال، فأنّى لنا أن نعيد النظر في كلّ هذه القواعد التي بنيناها بعد خمسة عشر قرناً، وهل يعقل أن نطرح فكرة تعيدنا إلى تقويم كلّ تراثنا ولا ندري عواقبها !

يطرح الأستاذ فخر الدين قباوة السؤال التالي: ما الفرق بين النّحو المستمد من القرآن الكريم، والنّحو المستمد من النثر والشعر وحوشي الكلام والأمثلة

[1] . الدفاع عن القرآن ضد النّحويين والمستشرقين، مطبوعات جامعة الخرطوم بالقاهرة. القاهرة: 1973(القسم الأول)

المنارة للاستشارات

الافتراضية ؟ فيجيب: يمكننا تحديد هذا الفرق بأنّ النّحو القرآني يمثّل أعلى مراتب القواعد فصاحة وبياناً؛ لأنّه كان الخطاب به للعرب بعد مضي أحقاب لغوية متتابعة، اكتسبت فيها العربية ألواناً من التشذيب والتعديل والتوليد، حتى أصبحت تمثّل قمّة النضج البياني وأعلى مراحل التطوّر والصفاء بين اللهجات المختلفة للقبائل العربية... أما نحو كلام العرب فهو يمثّل المستويات المختلفة من الشعر والنثر في القرون المتتابعة من عصر الاحتجاج قبل الإسلام وبعده، وفي البيئات المختلفة من قبائل العرب ذات الفصاحة والبيان، وفي النصوص التي لا ترقى في صحة أسانيدها ومتونها إلى ما تمتاز به الآيات القرآنية... ولذا نرى في هذا النّحو كثيراً من الشذوذ والندرة والتفاوت في الأحكام[1]) وهو مناسب لكلام العرب الذي له سياقات رفيعة ومقامات عالية ومتوسطة ودنيا، أما القرآن فله أسلوبه الرفيع الذي لا نجاريه في كلّ مقاماتنا، فهل يمكن مجاراة أسلوب القرآن في الحذف على سبيل المثال كما أنّ القرآن يتنوّع تنوّعاً بيّناً، وأحياناً يؤدّي هذا التنوّع إلى الفروق الدقيقة التي لا نستطيع مجاراتها، دون أن ننسى مسألة القراءات المتنوّعة للقرآن الكريم، فأيّة قراءة تعتمد؟ كما أنّ مسألة التواتر وهي شرط أساس في الوضع اللغوي لا نجده في بعض الآيات، فهل توضع لكلّ آية غير متواترة قاعدة؟ وإنّ مسألة القراءات هي التي أفاضت الخلافات حولها وأدّت إلى سيلان مداد الباحثين، فبعض النّحاة لا تهمّهم القراءة بقدر ما ينظرون إلى جوازها وقياسها في العربية، بينما أهل القراءات همّهم ما قرأت به الأئمة الماضية وجاء به السلف على النّحو الذي أخذوا عمّن قبلهم، كما أنّ هناك من الفقهاء من تعصّب لقراءة ما، وهناك من النّحاة من تعصّب لرأي مذهب ما.

النتائج:

[1] . المهارات اللغوية وعروبة اللسان، ط.1 بيروت: 1999 دار الفكر العربي/ دار الفكر بدمشق، ص.95-96.

المنارة للاستشارات

1- إنّ العلم حقائق مدعومة بأدلّة ثابتة وبراهين حقّة، وما يقوله بعض الباحثين في الموضوع أعلاه بعيد عن روح العلم وحقائقه الثابتة، فلا يمكننا تسويغ إيمان من أجل مخالفة رأي ثابت وقطعي وهنا تختلط الأمور. وإذا قلنا **العلم** نعني به الدقّة والمنهجية، وهما نتاج قواعد ومناهج لم توضع إلاّ بناء على حركية المجتمع الذي يعتمد القانون في كلامه، والمنطق في العلاقات اللغوية بين الألفاظ، فلا اعتباطية مطلقة في اللغة، ومن هنا فإنّ اللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم، لها إعرابها، وقامت على اجتماعية منطقية وعلى الفرق بين المعنيين، والفرق بين الضدين، والتناسب اللفظي للمعنى، والدلالة المنطقية، رغم المسالك الفرعية التي يمكن أن تحتذى حين يكون ذلك بدافع الضرورة، وبشافع من اللغة، وهذا ما وجدناه طريفاً في بعض الآيات، إلاّ أنّه يجب التمييز بين الضرورات، فليست كلّ الخروق اللغوية ضرورات، بل إنّ بعضها من باب العجز اللغوي أو الفقر المعجمي للقائل، وبعضها مستقبح.

2- **إنّ القرآن كتاب تشريع** مقدّس ندعه في مكانه للهداية، فإذا أدخلنا إلى ميدان الدراسات النّحوية فسوف يعيبه المعيبون، ولا ننكر أنّه الكتاب الذي تبحث في ضوئه العربية، وهو الجامع لشتاتها، ولذا يجب أن يكون فوق الاعتبارات النّحوية؛ لأنّه النص الذي جاءنا ممثّلاً للعربية وأساليبها الأصيلة. وكان ينبغي أن يكون فوق القواعد ، وفوق الخلافات اللغوية، ويترك للقضايا الدينية محافظة على قدسيته، أو لم يقل أبو عمرو بن العلاء: إني أستحي من الله أن أقرأ ﴿إنّ هذان لساحران﴾ وكان يقرأ إنّ هذين لساحران[1]. كما حُملت بعض القراءات القرآنية على الضرورة الشعرية، والقرآن ليس شعراً، ولا هو صادر عن بشر.

[1] . مهدي المخزومي، قضايا نحوية، ط.1. أبو ظبي: 2003، إصدارات المجمع الثقافي، ص.70.

المنارة للاستشارات

3- إنّ القرآن يفسّر بعضه بعضاً، فهو كلّ متماسك، وخارج عن جميع وجوه النظم المعتاد في كلام العرب وميادين أساليب خطبائهم وشعرائهم، فهو نمط لا يوزن بشعر أو بنثر، فمن الصعوبة وضع قوانين نحوية تيسيرية من خلاله (نحو القرآن) لأنّ هناك إعجازاً ومعانيَ لا تدركها عامة الناس، فهو يحتاج إلى تأويل عميق، ومن خلال هذا نروم في تيسير النّحو الابتعاد عن التأويل وعن العلّة الثانية والثالثة، ونبتغي أحياناً الأخذ بظاهر الكلام، فما كان يمكن أن يكون القرآن هو المنطلق، بل أن يكون نتيجة.

4- إذا أُخذ القرآن مدوّنة تيسيرية للنّحو، **فأية قراءة تؤخذ؟** علماً أنّه كثرت القراءات، واستعصى الخروج بنتيجة منطقية، فهناك حيث نجد بين القرّاء أنفسهم من يرتّب قراءات القرآن ترتيباً حسب أهميتها ولا ينظر إلى مخالفتها لقواعد النّحو، ونجد من يصحّح قراءة القرآن بما يوافق العربية، وإن لم تثبته الرواية، وهناك من القرّاء من لا يقرأ إلاّ بالقراءات السبع، فشدّد علماء القراءات النكير على القرّاء، فيروى عن المبرد أنّه قال: (لو صليت خلف إمام يقرأ ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي بكس الياء لأخذت نعلي ومضيت[1]) وهذه القراءة عدّها الزجاج رديئة ومرذولة، ورماها الزمخشري بالضعف، لكن ابن الجزري يرى بأنّها صحيحة اجتمعت فيها الأركان الثلاثة وقياسها في النّحو صحيح. ونعرف أنّ النّحاة رفعوا عصا القانون اللغوي في وجه بعض الآيات فرموها بالضعف والقبح والخطإ والشذوذ والرداءة واللحن والبطلان والسماجة وعدم الفصاحة، إلى آخر ما هناك من الصفات التي لا تليق بالقرآن(الحقّ أنّ موقف النّحاة من هذا لم يكن في درجـــة واحدة، فالبصريون عُنوا بالقاعدة التي وضعوها عناية أدّت بهم إلى أن يرفضوا هذه اللغة، ويعزلوها ويسلكوها في القراءات الشاذة أو يلحنوها

[1] . أحمد علم الدين الجندي"الصراع بين القراء والنّحاة" مجلة مجمع اللغة العربية. مصر: 1974، الجزء 33، ص.157.

المنارة للاستشارات

فإذا واجههم قوله تعالى ﴿إنّ هذان لساحران﴾ بتشديد(إنّ) وبالألف لحنوا القارئ أو أولّوها تأويلاً بعيداً، وحملّوها ما لا تحتمل، كان المبرد ينكرها، ولكنّه محجوج بالآية الكريمة وبحديث "لا وتران في ليلة" وقد استعمل المثنى هنا بالألف وهو نصب، وبقوله:

فاطرق إطراق الشجاع ولو رأى مساغاً لناباه الشجاع لصمّما

استعمل المثنى (ناباه) بالألف وهو خفض، ويقول الآخر:

إنّ أباها وأبا أباها قد بلغا في المجد غاياتها

استعمل(غاياتها) بالألف وهو نصب[1]. ومن هنا نؤكّد ظاهرة تخطئة النّحويين للفصحاء والقرّاء، وذلك عن طريق إخضاع أقوالهم وقراءات أولئك القرّاء لأصول وضعت استناداً إلى كلام العرب أنفسهم[2].

والذي نروم الوصول إليه هو التيسير اللغوي، والتسهيل على مستعملي اللغة العربية لكن لا يعني التسيّب، فالقواعد مرآة تعكس خصائص اللغة وأساليبها وعباراتها، فالنّحو أن يكون قياساً في غالبه واستعمالاً للعقل، فيتحتّم علينا أن نتعرّف على ما تتيحه للغة من الخروج أو العدول عن بعض سننها مراعاة للوزن والبناء الشعري ضمن ما يجوز له منها، ولكن لا يجوز أن نجعل هذا اختلافاً وندخل به معركة خلاف جديدة، وهناك أمور معاصرة تنتظرنا. فلابدّ أن نتمسّك بقواعد ثابتة، رغبة في السير باللغة وفق سنن مستقيمة لا تحيد عنها، فهنا مـــــا العمل: هل نخضع القراءات للقيود اللغوية، وننبذ ما لا يتّفق مع هذه القاعدة، وبذلك نخطئ قراءات لا يرقى الشكّ إلى صحّتها رواية وأداءً، وقد قرأ بها كبار من اشتهر بالضبط والإتقان كالقرّاء السبعة. وبذا نكون في حيص بيص من أمرنا، هل نأخذ بكلّ القراءات وهي كثيرة، فيحصل لدينا أنحاء جديدة،

[1] .مهدي المخزومي، قضايا نحوية. أبوظبي: 2003، إصدارات المجمع الثقافي، ص. 69-70.

[2] . عبد الجبار علوان النايلة"ظاهرة تخطئة النّحويين للفصحاء والقرّاء" مجلة المجمع العلمي العراقي. بغداد : 1986، الجزء الأول، المجلد السابع والثلاثون، ص.302-331.

المنارة للاستشارات

والحلّ ألاّ يعتمد القرآن في تيسير النّحو. ويجدر بنا الرجوع إلى الاحتجاج بكلام العرب في أكثر من موقع وهو السبيل الذي يعتمد الآن في المجمع اللغوية، وبخاصة عندما يعجزون عن وجود شاهد قرآني.

5- إنّ الأعراف اللغوية القديمة والحديثة تقرّ بأنّ وضع قواعد اللغات يكون بالعودة إلى تراثها، فإن صحّ القول أن نأخذ القواعد من القرآن، يعني هذا أنّ القرآن تراث. إنّ التراث هو ما تركه السلف للخلف، فالقرآن لم يتركه السلف للخلف، هو من عند الله حوى الحقيقة المطلقة الماضية والحاضرة والآتية، فهو ليس تراثاً. وأما التراث الديني فهو التفاسير والنتاج الحضاري القائم على دراسة القرآن، والتفاعل الصادر من الشاهد إلى الشاهد، وليس من غائب إلى حاضر. **فكيف نبني القواعد على كلام مقدّس ومسبوق بكلام قبله فهو ليس تراثا؟** ثمّ أنعيد النظر من البداية ونضع قواعد جديدة مستنبطة من القرآن، ونلغي كلّ هذا الإرث الحضاري الذي بنته الأجيال !!!

6- لا يمكن وضع قواعد أو العمل على تيسيرها بناءً على القرآن الكريم وحده، حيث نجد فيه ظواهر استعمالية غير موجودة في الاستعمال القديم والحديث، مثل شيوع الحذف مثل﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربّنا تقبّل منا﴾ أمثلة لا عديد لها لأسلوب التعجّب في القرآن، فهل توضع لها قواعد خصوصية؟ القرآن عجيب لا تنقضي غرائبه، أسلوبه أرفع بكثير من أساليبنا، فأنّى لنا أن نجاريه!

7- إنّ تشريف العربية بنزول القرآن ما له مثيل، لكن لا يجب أن يكون ذلك مدعاة للتقديس الأعمى أو يوقفنا عن طلب التطوّر اللغوي المطلوب حالياً، ونحن نعيش عولمة لغوية نشهد فيها انكماش العربية وبُعد أهلها عن العلمية، ونحتجّ بقوله تعالى ﴿إنّا نحن نزّلنا الذكر وإنّا له لحافظون﴾ الحجر9 فنرمي بالمنشفة إلى الله على أنّه حافظ هذه اللغة. في الوقت الذي نرى فيها عوامل

المنارة للاستشارات

العولمة اللغوية بارزة فيها: الامتداد الجغرافي على مستوى القارات الخمس/ التوسّع في عدد الناطقين/ السعة اللغوية/ الامتداد التراثي الطويل/ الاحتكام إلى الدين. إلاّ أنّ هذه العوامل لا تشفع لها ما دام **الجانب العلمي** فيها مغيّباً. والمرجو منّا تكثيف الجهود البحثية والمطلوب من العلماء الراسخين في العلم (علماء الأبحاث التقنية لا الفقهاء) الاهتمام باللغة العربية والعمل على جعلها لغة علمية، والاجتهاد داخلها وبها لتصبح منتجة للتقنية، والاهتمام بفهم القرآن فهما معاصراً والعمل على قيام مراكز البحوث الهندسية اللغوية؛ لأنّ ما قام به السلف حول القرآن غير كاف(لقد اهتمّ العرب بفهم الرسالة اهتماماً شديداً وأعطوها كلّ وقتهم وجهدهم، وجاهدوا في نشرها بين الأمم، ولكنّهم لم يهتموا **بفهم القرآن**؛ لأنّ القرآن بحاجة إلى تفرّغ ووضع حضاري معيّن وبحث علمي، لذا قال تعالى عن القرآن ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ ﴿١٠٦﴾ ﴾ الإسراء: 106. قال (على الناس) ولم يقل على الذين اتقّوا. فكلما زادت معاهد البحث العلمي وزاد عدد المتفرّغين لهذا البحث وزاد عدد الاختصاصات زاد فهم الناس للقرآن[1]). وأرى في هذا المقام ضرورة توجّه المهندسين وعلماء المعلوميات والرياضيات وعلماء الجينات للبحث في المتن القرآني، وهـــــذا البحث هو الذي يثري البحوث اللغوية، ويعطي العلمية للغة العربية التي تشكو فقراً مدقعاً.

الخلاصة: بناءً على الحيثيات التي أوضحناها في سطور هذه المقالة، أخلص إلى ما يلي: **إنّ القرآن كتاب تشريع لا كتاب نحو، كما لا يمكن ادّعاء أنّ القرآن كتاب هيئة أو طب أو تشريح** ولم يقل بذلك الأقدمون، ولا ادّعى ذلك المتأخّرون. وسبق أن قيل: إنّ القرآن فلسفة، وهوجم صاحب القول هجوماً عنيفاً[2]

[1] . محمد شحرور، الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، ط. 1. دمشق: 1999، الأهلي للطباعة النشر والتوزيع، ص. 129.

[2] . توفيق الطويل "بين لغة القرآن الكريم ولغة الفلسفة" مجلة مجمع اللغة العربية. القاهرة: 1986، الجزء 58، ص. 145 -173.

المنارة للاستشارات

. وكانت حجّته قائمة على وجود جوانب فلسفية، فما المانع أن نقول: إنّ القرآن كتاب علم أو طبّ أو فلك أو هندسة، لأنّه تعرّض لهذه الأشياء، إذا قبلنا بأنّ القرآن كتاب لغة. كما أنّ **القرآن لا يمكننا أن نتّخذه معياراً ونموذجاً في حالات تيسير النّحو**؛ لغياب كثير من الخطابات التي نتداولها في أساليبنا، ووجود خطابات رفيعة لا تناسب مقام التيسير، ولا يمكن أن ترتقي إليها لغتنا بكلّ سهولة. كما نستنكر مسألة **النّحو القرآني** الذي يرفع الآن من قبل بعض المجتهدين، وهذا تمويه وعجز، ودعوة إلى إلغاء التراث، فكنّا نتمنى أن تتلاحق الاجتهادات؛ حيث يبدأ الباحث أين توقّف سابقوه، ويواصل تطوير ما يحتاج إلى تطوير، لا أن يحصل الإلغاء بحيث نبدأ في كلّ مرة ممّا انطلق علماء القرن الأول.

مقترحات:

- ترك القرآن في محلّه المقدّس، على اعتبار أنّه كتاب تشريع، ولا يلتجأ إليه في الأمور اللغوية إلاّ كنتيجة.
- الحالات القرآنية الخارجة عن العرف اللغوي لا يجب أن تشكّل هاجساً يؤدّي بنا إلى الخروج عن عرف المقعدّين للغة.
- وجوب صرف النظر ملتقى عن إعادة بحث المبحوث، حيث يجب أن نبدأ أين توقّف السلف المبدع.في كلّ
- الاحتكام في مسائل النّحو إلى علماء أبدعوا في اللسان العربي المبين.
- تفعيل مؤسسة اتّحاد المجامع اللغوية العربية على أن تكون له سلطة التشريع اللغوي دون غيره من المؤسّسات.
- الاتّفاق على مؤسّسة مركزية عربية تعمل على التيسير النّحوي.
- البعد عن النّحو التاريخي، والتمييز بين النّحو والقواعد.
- إلزام وزارات التربية/المعارف العربية بتطبيق القرارات التيسيرية.

المنارة للاستشارات

87 التشريع والنحو...

الخريطة رقم 1

ع/ مقدمة في علوم اللغة، البدراوي زهران، ص52

المنارة للاستشارات

88 مجلة اللغة العربية – العدد الخامس عشر

الخريطة رقم 2

ع/ مقدمة في علوم اللغة البدراوي زهران، ص51